هدية .. إسمها الحياة

قصص

سمية عبد الحميد

الإهــداء

هدية .. إسمها رامى

سمية عبد الحميد

أهـــــلاً بك

لابد أن أحطمه .. أقضى عليه .. لن يفلت من يدى .. ولن يستطيع أن ينال منى أى شيء سأجبره على المجئ إلىّ راكعاً ذليلاً ولن أسامحه .. سأجعله يعرف الوجه الآخر لهالة حمدى بوجهها العبوس وقلبها الصلب وعقلها العنيد وشخصيتها الفولاذية . أصرت هالة على خطتها الانتقامية . شنت حملتها المسعورة ضد محمود زوجها السابق. استطاعت بنفوذها وثرائها أن تهزمه وأن تهز تجارته وتشوه سمعته .. وشهدت ساحات القضاء وصفحات الجرائد أخباراً ساخنة عن أسرار طلاق نجمين من نجوم المجتمع والمال .

في حجرة مكتبها بالمصنع الذى تديره .. جلست بمفردها بعد يوم شاق فى لقائها مع الصحفيين وأسئلتهم الكثيرة ؛ فقد فازت حملتها الصحفية ضده بانتصار ساحق .. تصور البعض أنها لابد أن تحتفل بهذه المناسبة التاريخية .. لكن قلبها كان مشبعاً بالحزن والحسرة على أيامها الجميلة وحبها النادر وزواجهما الذى كان يوما ما مضرب الأمثال .

فتك الحزن بها وغرقت كرامتها عندما أحب امرأة أخرى .. لو كانت تفوقها جمالاً أو ذكاء لربما عذرته ،لكنه وقع فى غرام إحدى الفتيات الصغيرات الفقيرات من عاملات المصنع .. وقع بصرها على صورته فوق مكتبها .. التقطتها وقذفت بها على الأرض وحطمت إطارها تحت حذائها .. ثم انهارت فى نوبة هستيرية من البكاء

والصراخ وسقطت مغشياً عليها .

وجدت نفسها فى المستشفى وقد أذهلتها المفاجأة عندما علمت بقدوم طفل إلى حياتها .. شعرت بحزن شديد لقدوم هذا الزائر على غير موعد !! طافت بها ذكريات الأيام الحلوة القصيرة التى كانت تتمنى فيها الإنجاب تتويجاً لحبها .. أما الآن فإنها لا تريده .. اجتاحتها موجه شديدة من الغضب .. بعد لحظات استعادت رباطة جأشها وحسمت أمرها وقررت التخلص من هذا الوافد الثقيل بأى شكل ومهما كانت النتائج.

« لكنك يا هالة لا يمكنك أن تمسكى بعصا سحرية وتجعلى كل شىء يسير وفق هواك .. ثم لماذا تغضبين الله بموت هذا الطفل البرىء ؟ » .

انتبهت إلى كلمات الطبيب المشرف عليها .. ورفضت كعادتها الامتثال لكلامه .. وأعلنت أن حياتها لا تهمها ولا تقبل أن يفرض عليها أى شىء حتى لو كان هذا الشىء جزءاً منها .. جنينها .. وبعناد ومكابرة حاولت جاهدة القيام من فراشها ولم يسعفها ضعفها الشديد فوقعت مغشياً عليها مرة أخرى . ظلت حبيسة الفراش تحت الملاحظة الدقيقة .. أكد لها طبيبها مرة أخرى خطورة موقفها هى والجنين .. ودعا الله أن يشفيها وينجيها من هذه المحنة .

أسلمت هالة نفسها إلى الطبيب .. واليأس يتعملكها .. الشىء

الوحيد الذى أبقى على رغبتها فى الحياة ..أن تعيش فقط لتشبع غريزة الانتقام من زوجها السابق !!

فى حجرة العمليات كان خيط رفيع يفصل بين الحياة والموت .. فجأة ملأ صراخ الطفل أرجاء الغرفة .. كانت تتصبب عرقاً .. صدرها يعلو ويهبط فى وهن مع أنفاسها الحارة .. تأملت يدى الطفل الجميلتين وعينيه المغمضتين .. أحست براحة عميقة ؛ فملامحة أقرب لها وأبعد ما تكون عن والده .. حمدت الله أن طفلها لن يذكرها بأبيه أبداً .. بدأ الملاك الصغير يفتح عينيه وعلى شفتيه طيف ابتسامة جميلة .. تسربت من بين حناياها مشاعر الغضب والانتقام وامتلأت نفسها رضا وسكينة لقدوم هذا الملاك . ضمته إلى صدرها وهنأته على سلامة الوصول إلى عالمه الجديد بعد رحلة طويلة من العناد .. ارتجف شىء بداخلها .. شعرت بحب جارف قوى عميق نحوه . همست له بصوت متقطع وسحابة من الدموع تغلف عينيها وهى تطبع بحنان قبلاتها فوق خديه : « أهلاً بك فى حياتى » !!!

الظـــل

جلست فاطمة غارقة فى حزنها الجليل تتقبل العزاء فى وفاة زوجها الكاتب المعروف محمود حمدى . عيناها حمراوان .. تبكى بحرقة ينتفض لها جسدها المكتنز.وهى فى الخمسين من عمرها ، قصيرة القامة .. تجتاحها موجة شديدة من الألم .. حولها قريباتها وجيرانها وصديقاتها وهنّ يواسينها من حين إلى حين ثم ينصرفن إلى الأحاديث الجانبية .

بدأت المعزيات يتسللن الواحدة تلو الأخرى .. وخلا البيت .. شعرت كم هو واسع وبارد .. تلفتت حولها وكأنها تراه لأول مرة وهى التى عاشت فيه ما يزيد عن ثلاثين عاماً عمر زواجها من محمود .. حفظت كل ركن .. كل جزء فيه .. تتلاحق الصور أمام عينيها .. تراه بجسده الفارع . صوته الجهورى الحازم .. طلباته الكثيرة .. رنين التليفون الذى لا ينقطع .. كلماته المعتادة .. جلست فى إعياء على الأريكة تمسك رأسها من الصداع .. تشعر بالخوف .. هل ستبيت ليلتها وحدها بدونه ؟ أى فراش تأوى إليه ؟ .. ليس موجوداً كى تستأذنه .. إنها لم تتعود على فعل أى شىء دون الرجوع إليه .. وإذا تجرأت يوماً .. وتذكرت أن لها عقلاً يفكر أو قلباً ينبض استهزأ بها .. وحقّر من رأيها ..

تهتز داخلها كل طاقات الأمل .. وتعصف بها أعاصير الإحباط .

ابنتها الوحيدة تبيت ليلتها فى فندق خمس نجوم هى وشغالتها

استعداداً للرحيل غداً إلى دارها فى القطر العربى .. حضرتْ فقط لتعزى أمها كأى غريب .. تبادلت بضع كلمات باردة معها .. كأنها ليست أمها .. وعندما همت أن تنصرف قالت لها فى لا مبالاة :

« البيت بدون بابا لا يطاق .. لا بد أن أبحث عن مكان آخر أبيت فيه » .

لم يترك لها محمود فرصة العيش لحظة صدق واحدة مع ابنتها .. كان بشخصيته الطاغية هو الذى يوجه ويرشد وينصح ، وليس عليها سوى الطاعة العمياء .. كم تمنت لو عاشت معه رفيقة وليست ظلاً .

جاوزت يوماً حدودها عندما نهرت ابنتها وهى فى السادسة عشرة من عمرها وهى ذاهبة إلى إحدى الحفلات .. أوقفتها ومنعتها من الخروج .. لكنها فوجئت باعتراضه ، بل واتهامها بأنها دقّة قديمة ومتخلفة .. مما شجع ابنتها على أن ترمقها بنظرة تحدٍّ لا تخلو من وقاحة .. وخرجت غير عابئة بأحد !

والآن .. ماذا تفعل بحياتها ؟

وقفت تنظر إلى هذ الكم الهائل من الكتب .. المقالات .. الصحف والمجلات التى تملأ البيت .. عندما كانت تقترب منها .. كان يزجرها ويهينها ساخراً :

« مالك والكتب .. كفاية عليك المطبخ » ! تزوجته وهى فى الثامنة عشرة بينما كان يكبرها بما يزيد على خمسة عشر عاماً ..

أطفأ داخلها جذوة الأمل فى حياتها معه .. وفى حركة لا إرادية نزعت كتبه من أماكنها وألقت بها بعيداً وداست عليها بقدميها .. وظلت تلف الحجرة وهى تشعر بالوحدة والضياع !

تحت نار المجفف الكهربائى .. وضعت رأسها .. أسلمت شعرها للصبغات الحمراء والسوداء والصفراء .. حشرت جسدها المكتنز فى ملابس ضيقة .. حاولت عابثة أن تلحق بالعمر الذى مضى والسنوات التى ولت .. فى جلسات خاوية من أى معنى .. التمست الصحبة فى سيدات النادى ، على الرغم من أنهن لسن مثلها وليست مثلهن .. تطلب منهن النصيحة أحياناً .. وفى أحيان أخرى تتبادل معهن أحاديث جوفاء .. تنوعت مجالسها بين المحاضرات العلمية والندوات الدينية .. وقضت أوقاتاً أخرى فى ممارسة الألعاب الرياضية ، أو حضور الأمسيات الغنائية وحفلات الزار !

حاولت بكل طاقاتها التحرر من دائرة الظل .. أن تكون كياناً بذاته .. لكنها كلما أوغلت فى ممارساتها قتلاً للوقت وملئاً للفراغ .. شعرت بهشاشة إرادتها ، والتصقت بالظل أكثر وأكثر .

عندما ظهر ماجد فى حياتها .. تصورت أن فيه خلاصها .. فها هو ينجذب إليها وهو المعروف بين نساء النادى بوسامته وجاذبيته ، ثم أصبحت علاقتهما حديث النادى .

تذكرت اليوم الذى شاهدته يجرى فى سباق مع فتاة فى مثل عمره .. نظرت إليهما .. تأملتهما .. كم كان منظرهما بديعاً .. وكم كانت نظرتها قاسية إلى نفسها .. فما الذى يغرى هذا الشاب للتعلق بها إلا الأموال التى كانت تنفقها عليه أو يستنزفها منها بلا حساب ؟ .. وتذكرت آخر مرة كانت تجرى معه وهى تلهث ، تتصبب عرقاً ولا تقوى على ملاحقته .. أدركت لحظتها أنها مسخ امرأة ؛ فلا هى قادرة على مسك تلابيب الزمن .. ولا هى بقادرة على أن ترجعه إلى الوراء .

عادت إلى بيتها حزينة كسيرة الخاطر .. تبحث لنفسها عن معنى .. عن هوية .. جلست أمام المرآة وتأملت الزمن وقد نقش بإزميله الحاد علاماته القاسية تحت عينيها وحول شفتيها وتحت رقبتها .. رأت سنين عمرها الحقيقى تطل عليها بلا رحمة . ثم وقفت فى الشرفة تنظر إلى الأفق البعيد وتتساءل بينها وبين نفسها « هل ستنجح يوماً فى الخروج من دائرة الظل » ؟ ! .

حدث بعد منتصف الليل

اعتاد على رنين التليفون طوال اليوم .. وحتى بعد منتصف الليل ، لكن هذه الليلة .. بالتحديد .. لم يكن يتوقعه .. فقد عاد لتوه من غرفة العمليات بعد أن أجرى جراحة قيصرية .. وأهدى للبشرية مولودة جميلة .. قطعت بصراخها هدوء الليل وسكونه .. وملأت العالم كله صراخاً واحتجاجاً على هذه الحياة .

ألقى بجسده المكدود على الفراش طلباً للنوم ، بعد يوم عمل شاق وليل مضن .. فى ثوان راح فى نوم عميق . وفجأة ..قام مذعوراً على رنين تليفون محمود .. رفع السماعة متثاقلاً .. صوت غليظ ..جاف يطلب حضوره على الفور . هبّ من فراشه مذعوراً .. وهولايصدق أن قسم الشرطة يطلب حضوره .. دون سابق إنذار .. ودّ لو يعرف المزيد ويسأل "لماذا" ؟؟ لكن المتكلم اكتفى بكلمات مقتضبة .

كانت خيوط النهار على وشك الظهور . دخل قسم الشرطة مهرولاً ..على غير طبيعته .. إنها المرة الأولى فى حياته . تحدث إليه الضابط فى برود أذهله ذلك .. قد اعتاد وهو الطبيب المشهور على كلمات الاحترام والتقدير .. أراد فى عصبية أن يفهم سبباً لوجوده !!

لم يمهله الضابط الفرصة .. نادى الحارس الواقف على الباب :

ـ هات اللى فى الحجز ياعسكرى.

دقائق ثقيلة .. بطيئة ..متكاسلة .. ثم رأى أمامه ..بعض الشباب والشابات .. ثم ابنته الشابة الجميلة .. مقيدة اليدين انتفض ... مذعوراً .. غير مصدق . وقبل أن يبادر بالأسئلة .. عاجله الضابط :

ـ قبضنا عليهم متلبسين في حالة سكر بيّن !!!

لم يتصور الدكتورحاتم للحظة واحدة أن ابنته .. زهرته ..قد تكون فى هذا المكان .. تصور أنه تركها نائمة فى فراشها الوثير .. تنعم بنوم هادىء وهى ترتدى ملابسها الحريرية .. لم يخطر يوماً بباله أنها قد تعرف .. تسمع .. عن هذه السموم . أخذ يفرك عينيه غير مصدق .. أن جميلته ذات العشرين ربيعاً .. تلك التى علّمها أفضل تعليم .. وضحى بحياته وسعادته بعد وفاة والدتها .. تنزلق إلى هذا المنحدر !!

نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة .. الهالات الزرقاء تخضب عينيها .. الشحوب الباهت ينشع على وجهها والنظرات الزائغة ترتعش فى مقلتيها . كانت ترتدى "بلوزة" خفيفة تكشف تفاصيل جسدها ، وبدت كقطة مبتلة شريدة . مرتعشة .. تبحث عن ملجأ . وألح عليه التساؤل : متى كانت آخر مرة رآها ؟

قفزت نرجسيته أمامه .. ماذا لو عرف الصحفيون ؟ ماذا لو تصدّر الصفحات الأولى خبر "ابنة دكتور شهير مدمنة" .. ماذا سيقولون ؟ سيضيع كل ما بناه طيلة هذه الأعوام .. وسوف تصادر أبحاثه .. وربما لن يستطيع أن يرأس المؤتمر القادم .

تزاحمت داخله الأفكار والمشاعر .. واختلطت ببعضها البعض . ولم يدر لأى منها ينصت !!.. الأب الطبيب .. أم الإنسان ؟ ! وبدأت

هذه الأصوات تصمّ أذنية وتهز الأرض تحت قدميه ، وهى تقف أمامة ، بينما يصله صوت الضابط وهو يشرح له كيف ومتى تم القبض عليهم ، ويسرد له الواقعة فى إسهاب مرير . تصاعدت مشاعر الغضب والإحباط والحزن داخلة ، فودّ لو يرفع يده ويهوى بها على وجهها .. يهشم رأسها .. وفى اللحظة نفسها .. لو يحتضنها !! رفع عينيه وقد رآها غلالة شاحبة .. وكأن الشباب والحيوية قد هربا منها ، فاستسلم لمشاعر الغضب وهمّ بأن يصفعها صفعة قوية لتفيق من هذا البلاء . رفع يده إلى أعلى .. فرآها تبكى بكاءً حاراً .. صادراً من أعماق سحيقة .. وارتمت تحت قدميه فى استسلام لم يعهده أبداً .. قالت وسط شلال دموعها المنهمرة كأنها سيل على زجاج أملس :

ـ بابا تعبت .. عاوزة أتعالج .

نزل كلامها عليه برداً وسلاماً .. اقترب منها .. ورفعها من على الأرض .. واحتضنها بأبوته ، واحتوى ضلوعها المتأودة بين ذراعيه .

للحب قصة طويلة

نعم لقد فاتها قطار الزواج وذهب بعيداً .. نعم لقد أصبحت تحمل لقباً لا تحبه ولا تطيقه من مجتمع يؤمن فقط بالألقاب .. لقب عانس ، ولكن ماذا تفعل فى قلبها وماذا تقول لعقلها الذى يرفض قبل قلبها أن يتزوج بلا حب ؟ كم قالت لها أمها إن عليها أن تبحث لنفسها عن عريس ، أن «تربّط» مع أحد زملائها ، البنات هن اللاتى يسعين إلى أن يتزوجن الرجال ، ولكنها للأسف لا تجيد لعبة الاقتناص .

فى الجامعة لم ينبض القلب الأخضر لأحد ، ولم يشتعل العقل لمخلوق ، لقد سبقتها أختها الصغرى إلى الزواج ، أقل منها جمالاً .. ولكنها ، بلا شك ، أكثر منها ذكاءً فى اقتناص العريس «اللقطة» !! والآن .. خلا البيت عليها عندما تزوج الإخوة والأخوات ورحل الأب والأم ، لم يرحمها الفضوليون من أسئلتهم اللاذعة « كيف تخطاها العرسان ؟ .. ما عيبها ؟ وما الذى يمنعهم ؟ » تحملتهم أحياناً .. لا تهتم كثيراً ، أغلقت بابها ، ولكنها أبداً لم تستسلم .. لا زواج بلا حب ، ولا حياة بدون الفارس الجميل . وبعد طول انتظار .. آمنت بحظها ، ورضيت بحياتها .. فانشغلت بعملها وأخلصت له كل الأخلاص .

كلفها رئيسها بمهمة خارج نطاق عملها ، تململت من هذا الطلب ، حاولت أن تتملص منه ، ولكن مديرها طلب منها أن تذهب فقط إنقاذاً للموقف ولضيق الوقت .

فى المطار أمسكت بورقة كبيرة تحمل اسم الزائر القادم - شريف كامل - لم تكن تعرفه ولم تستدل عليه . وقفت طويلاً حتى تورمت قدماها ، شعرت بإعياء شديد وأوشك رأسها على الانهيار ، جلست فى مكان بعيد ، خلعت فردة حذائها .. بعد برهة شعرت بيد تربت على كتفها ، التفتت جزعة .. فرأت وجهاً باسماً قال مازحاً مشيراً إلى الورقة التى كانت لا تزال تحملها : «ده يبقى أنا» ، ثم مشيراً إلى نفسه : شريف كامل .. فانتفضت واقفة وهى ترتدى فردة حذاء واحدة ، فلم تستقم قامتها ، أمسك بكتفيها ليجعلها تقف مستقيمة ، فضحكت ونظرت إلى أسفل ، ثم ارتدت حذاءها ، وقبل أن تقول كلمة قال لها وسط ابتسامته : «كده أحسن» ، فابتسمت فى حياء .

اعتذر لها كثيراً عن تأخره ، وقال إنه كان يتوقع شخصاً آخر ، ولكنه سعيد لاختلاف توقعاته ، كان يتحدث كثيراً وسريعاً .. لطيفاً .. بسيطاً .. تلقائياً .. فى الخمسين من عمره .. متفائلاً .. ومرحاً .. عندئذ شعرت بتيار كهربائى يسرى فى عروقها ، ورفرف الطائر الحبيس داخل صدرها لتأذن له بالطيران .. الله .. ما هذا الإحساس الجارف الذى يجتاحها ؟! فتاة فى الأربعين .. ولكنها تشعر أنها فى السادسة عشرة ، تستمع إليه فى اشتياق بالغ . لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تنظر إلى عينيه العسليتين ، تعجبت من حالها ومن ارتباكها ، فى لحظات شعرت كأنها تعرفه من زمن بعيد .

حمل عنها بعض الأوراق التى كانت فى يدها ، وظلا يتحدثان طويلاً وهما فى طريقهما إلى خارج المطار ، وعندما همّا بعبور الطريق ، كادت سيارة أن تدهمها وبسرعة أمسك بيدها محذراً ، حدث كل ذلك فى لحظات . سعدت بتلقائيته وتساءلت : هل هذا حال فتاة فى الأربعين من عمرها ، لا تزال تحلم بالحب .. وتحلق داخلها أحلام فتاة صغيرة ؟! العمر فداء هذه المشاعر التى تأتى إلينا من حيث لا نحتسب .

تحدثا طويلاً .. ومن خلال رحلتهما من المطار .. عرفت عنه الكثير .. وأخبرته بالقليل عن نفسها ، التقت عيونهما وتآلفت روحاهما ، وقال لها فى بساطته المعهودة .. لكل منا نصفٌ مفقود .. أليس كذلك ؟! .

ارتبكت قليلاً وتلعثمت فى الرد وتوردت وجنتاها .

داعبها أمل رهيف بأن الطريق يستوى تحت قدميها .. ولأول مرة !!

حطمتُ قیودی

في حجرة صغيرة، مظلمة ، ليس بها إلا طاقة صغيرة من أعلى بها قضبان ، يدخل إليها الهواء بحساب ، كانت تجلس على أريكة خشبية متآكلة ، تسمع صوت الخفافيش أو ترى كائنات تمرق فى الغرفة بسرعة مذهلة . تتلبد الحشرات فوق جلدها الناعم ، فلا تشعر بها ، بل هى تائهة فى عالم المجهول ، والمصير الذى ينتظرها ، تسمع صوت شخير الآخرين الذين يقاسمونها زنزانة محكمة الإغلاق، لا تستطيع أن تفلت من قضبانها التى تجثم على صدرها ، كيف يتسنى لهم أن يغطوا فى نوم عميق ؟!! أما هى فقد تكور جسدها على الأريكة ، والرعب والذعر من الماضى والحاضر يقتلان البقية الباقية منها .

لا بد أنها تحلم ، ربما أفرطت فى الطعام ، وما تعيشه مجرد كابوس ، وفركت عينيها غير مصدقة نفسها .

كيف أتت إلى هذا المكان؟ كيف انتهى بها المصير إلى هنا ؟ وهى التى تدافع عن حريتها ولا تطيق أن يحاسبها أحد . اليوم تطبق جدران الزنزانة السميكة على صدرها . فى داخلها شيء يصرخ ويستغيث .

إنها هنا بسبب جريمة لم ترتكبها ، ربما لو كانت ضبطت فى فعلة شنعاء لهان عليها الأمر . إلا أنها هنا بسبب سوء الحظ ليس إلا، بل لسذاجتها باللسخرية ! لقد تصورت نفسها ذكية وحريصة ، ولكنها وقعت بسبب خطأ لم ترتكبه .

ذهبت إلى الأستاذ عزت لتسلمه الملف العاجل الذى طلبه ،

ولكنه توسل إليها بأدب جم أن تصعد إليه فى الغرفة ، حيث يعانى من نوبة برد شديدة ، وتعلل إليها بأنه فى حاجة أن يعطيها مستندات سرية جداً خاصة بصفقة الشركة القادمة . لم تشكّ لحظة واحدة فى صدق نواياه ،. لم ينتابها أقل توجس .

لقد كان فى عمر والدها ويعاملها بثقة منذ أن عملت لديه فترة ليست بالقصيرة . ما الذى حدث له عندما استدرجها إلى غرفته فى الفندق ذى الخمس نجوم ، تحول إلي شخص آخر ، بل إلى حيوان . انقض عليها عنوة ولم يمهلها فرصة . آه تتذكر كلماته الآن عندما كان يجذبها من ملابسها قائلاً لها « واشمعنى أنا ؟! .. لا » . آه يا له من وغد حقير . رآها ضابط الأمن وهي تجرى مسرعة من غرفة عزت بيه وقد تبدلت هيئتها ، أمسك بها لتنتهى إلى هنا فى هذا المكان الذى لم تتصوره يوماً ولا حتى فى أحلامها .

جلبت العار لنفسها ولعائلتها ، وسوف تساق غداً إلى النيابة وتوجه لها تهمة ، وربما يستدعون أخاها « سامح » ليأخذوا تعهداً عليه بأن يصون أخته ، سوف تُفصل من الكلية ، وسيعرف كل الناس أنها اتهمت فى قضية من أبشع قضايا المجتمع .. قضية غير أخلاقية وسوء سلوك ، كله يهون إلا « سامح » ، سامح بسماحته وطيبة قلبه سوف تورطه فى هذا المأزق . يارب ، أليس لهذا الليل آخر ؟ يارب ، قالتها وهى فى أزمتها ، وتساءلت بينها وبين نفسها : هل يسمع الله منها ؟ هل مَن على شاكلتها يتقبل الله منهم ؟ اليوم فقط أدركت كم كانت غارقة فى الرذيلة والاستهتار واللامبالاة . كانت تسمى كل

ذلك حرية : حرية الفعل والقول ، وحتى حرية الجسد . كان أصدقاؤها مثلها ، شعارهم «نفعل ما يحلو لنا مادمنا لا نأخذ شيئاً من أحد» . فى الصباح تذهب إلى الجامعة ، ترتدى الملابس الضيقة والقصيرة ، تشد خصرها بحزام عريض ، ترتدى الكعب العالى ، تدخن إذا أرادت ، تذاكر دورسها إذا رغبت ، وفى المساء تجتمع الشلة فى بيت أحد الأصدقاء ، حيث الرقص والتهريج الرخيص ، حيث الحرية المباح بها كل شىء . تعيش حياتها كما يحلو لها ، وربما تستيقظ صباحاً وتجد نفسها فى بيت غير البيت الذى كانت فيه أول مرة . ما أحلى الحرية ، كانت تعمل فى وكالة الإعلان لتكسب قوتها . لم تكن فى حاجة أن تبادل أحاسيسها بالمال ، كانت تقول لنفسها إنها إنسان له احتياجات ، ولا أحد ينفق عليها ، ولا تحتاج لأحد وإنها حرة !!

تصورت نفسها حرة فى أن تفعل ما تريد دون أن يحاسبها أحد ، ولكنها هنا فى هذا المكان تبحث عن حريتها فلا تجدها . بل إن الهواء ليس متاحاً لتتنفسه . أية حياة هذه التى عاشتها ؟ . ما قيمتها إنها لا شىء على الإطلاق . القيود التى كانت تقول إنها حطمتها .. قيود العادات والتقاليد . لقد صنعت قيوداً أكثر على نفسها ، عندما تركت العنان لعنفوانها ورغباتها تجمح بها هنا وهناك . إن أكبر قيد عليها أن تحطمه هو نفسها ، بأهوائها ونزعاتها الجامحة . يارب ، قالتها مرة أخرى فى يأس وضعف ، ولا يزال سؤال يتردد داخلها : هل من على شاكلتها يسمعهم الله ولكنها لم تفقد الأمل ، ظلت تقول

«يارب .. يارب» ، وأخيراً قالت فى حرقة وندم شديدين : «يارب انصرنى على نفسى فرّج كربتى» !!

بدأ نور الصبح يتسلل من بين قضبان الطاقة الصغيرة الموجودة فى أعلى الزنزانة ، دخل العسكرى ونادى على اسمها ، يطلبها لمقابلة البيه الضابط ، ارتعدت أوصالها ، وجرّت ساقيها بصعوبة ، وهمّت بأن تتحرك ، فلم يمهلها الشاويش ولكزها فى كتفها قائلاً : «وربما يكفينا شرك وشر أمثالك» ، ثم جذبها من ذراعها فى عنف . سارت فى الطريق الطويلة معه وهى تترنح خوفاً وكمداً . دخلت غرفة الضابط ففوجئت بعزت بيه يجلس أمامه . بادرها الضابط بقوله «أنت محظوظة» ، لولا أن عزت بيه قال إنه حدث سوء تفاهم ، لكنت أصبحت الآن وراء الشمس» ، ثم طلب من عزت بيه أن يصحبها إلى الخارج ليغلق المحضر .

فى لحظات عادت الحياة . شعرت بقيمة الضوضاء والضجيج اشتاقت إلى الهواء المليء بالدخان . كانت أشبه غريق على وشك الموت ، فانتشلته يد القدر . نظر إليها عزت بيه وقال لها : «مش عارف إزاى ده حصل منى ، لكن أنا سمعت عنك كلام كثير ، وهو ده اللى شجعنى .. عموماً إنت برضه زى بنتى» . نظرت إليه ولم تستطيع أن ترد ، كانت فى حالة ذهول ، وساعتها فقط ، انهمرت منها الدموع عزيزة ساخنة لتغسلها . لم يلتفت أحد فى البيت لغيابها . لم يسأل أحد عن سبب تأخرها . ولكنها لم تعد تعبأ بذلك فقد ظلت عشرات الأسئلة تلح عليها ولا تجد لها إجابة .. ماذا لو لم يأت عزت بيه ؟

ولماذا تحرش بها ودعاها إلى غرفته ؟ إن الله وحده هو الذى خلصها من هذه المحنة ، الله الذى ابتعدت عنه شملها برحمته وعظمته واستجاب لدعائها !!

حبست نَفْسها فى غرفتها . لم تطق أن تتحدث إلى أحد . ظلت فى حالة ذهول إلى وقت طويل . وعندما كان يتحدث إليها سامح ، تنظر له فى ذهول ، وتتذكر أنها كانت ستجلب له الخزى . إنها لم تفكر فيه مرة واحدة ، كل مجونها واستهتارها كان لنفسها فقط مادام لا يوجد حسيب ولا رقيب . أدركت كم يعيش كل منهم فى واد ، ولا يجمعهم سوى جدران البيت .

ابتعدت عن الشلة ، انتظمت فى دروسها ، قاطعها أصدقاؤها ، فلم تهتم ، قالت عنها والدتها إنها مريضة بالوحدة والاكتئاب ، فلم تعبأ بها . سامح أخوها هو وحده الذى كان سعيداً بصحبتها ، استقالت من عملها فى شركة عزت بيه . وكلما وضعت رأسها على وسادتها ذرفت دموعاً ساخنة .

ارتدت رداءها الواسع الفضفاض ، وغطت رأسها بغطاء مخملى ، بينما انشرح صدرها لكلام الرحمن !!

دعوة للحياة

أطبق الخطاب فى قبضته وكاد يلقى به فى المياه .. تراجع لحظة ثم دسه فى جيبه . كان الجو شديد البرودة .. الرياح تصفر بينما صوت الأمواج يعلو .. لم يكن فى الشارع سوى بضعة أشخاص يسرعون الخطى فى طريق عودتهم ، بينما كان تامر باعوامه الأربعة عشر وطوله النحيف الهزيل مثل عود قصب يسير بخطواته البطيئة غارقا فى أفكاره وهمومه .. تلمع عيناه ببريق الدموع المحتبسة فى مآقيه ، غير مبال بالجو القارص على الرغم من قميصة الخفيف وسرواله الواسع ،حذائه الرياضى . كان هائماً على وجهه بلال هدف ، لا تعنيه المسافات الطويلة التى قطعها أو توغل ساعات الليل التى تقذف بصقيعها بلا هوادة .

منذ اللحظة التى صفعه فيها أبوه صفعة قوية والأرض تهتز تحت قدميه .. والنيران المستعرة تكوى قلبه ، وكل شىء يغلى داخله .. كانت الإهانة قاتلة أمام زوجة أبيه التى رفض الامتثال لأوامرها .. ود لو عاد إليهما ثائرا ومتحديا ليغيظهما .. وليكن ما يكون .

كان الإحساس المرير بالضياع والغربة فى بيت أبيه يمزقه كضيف دخيل غير مرغوب فيه والآن وقد أصبح طريدا شريدا يفتقد الملجأ ، فاين يبيت ليلته ؟ هل يهب إلى أمه الشرية ماذا لو طرق بابها هل ستشفق عليه أم تتهم أباه بإهماله وضياعة ؟ هل ستاخذه بين أحضانها أم تطلب منه أن يتوارى عن نظرها ؟ ولربما تدعوه للدخول وتلقى

أمامه العشاء كقط شريد .. ثم تخرج مسرعة نحو سيارة التليفزيون التى تنتظرها لتسجيل دورها المهم كزوجة لطبيب التجميل الماهر الشهير الذى يجوب العالم ويبدل ويغير من أشكال البشر . ترى هل يستطيع بعبقريته أن يغير قلوب الناس ؟ فكر لو اقتحم عليها الأستديو وهاجمها أمام الجميع وقال لهم هذه السيدة التى تتباهى بدورها كامرأة عظيمة تقف خلف رجل عظيم لا تعرف شيئاً عن ابنها وتجهل كل شىء عنه حتى سنته الدراسية واسم المدرسة التى ينتمى إليها .

لماذا يعيش .. ؟ ومن يهتم بوجوده أو حتى اختفاءه عن عالم الحياة ؟

لا أحد !!

وسط ذهوله وشروده ظهرت سيارة مسرعة ..صدمته .. طوحته بعيدا .. توقفت محدثة دوياً شديدا خرج سائق السيارة مذعورا من هول الصدمة . التف المارة حوله .. كان مغشياً عليه مغمض العينين ، تتلاحق أنفاسه فى صدره صعودا وهبوطا . بدأ يفيق شيئا فشيئا . . يتحسس نفسه وقد رأى الموت بعينيه حمد الله على نجاته .. تتناثر أصوات الناس من حوله ، «حمد الله على سلامتك .. قدر ولطف .. يابنى خذ بالك من نفسك» . بدأوا يساعدونه على النهوض . انتصر على آلامه الموجعة وجروحه وكدماته . فوجئ بسائق العربة لم يغادر المكان قبل الاطمئنان عليه يصر على اصطحابه إلى أى جهة

يقصدها .

استعاد توازنه .. تذكر خطاب جده .. أخرجه من جيبه . أعاد قراءته ، وتذكره بملامحه الهادئة الرحيمة الطيبة ، ولحيته البيضاء ، ودعوته الملحة له للعيش معه حتى يؤنس كل منهما الآخر .

ورغم برودة الجـو أحس بدفء داخلي يسـرى في أوصـاله . انفرجت أسارير وجهه العابس بابتسامة مطمئنة . رفع عينيه نحو السماء ممتنا !!

كلنا نحب القمر

إذا أردت أن تكسب قضية فاذهب إلى أحمد لطفى ، إنه ليس محاميا عاديا ، بل هو إنسان لا يقبل إلا قضايا المظلومين ، وما أكثرهم . عرف عن أحمد لطفى شهامته ورجولته وتفانيه فى عمله ، إلى جانب طيبة قلبه .. نسيت أن أقول إن أحمد وسيم جداً .

وإذا تصادف وذهبت إلى مكتب أحمد لطفى فستلتقى بثلاث وردات ، نعم .. ثلاث زهرات : أحلام ، وداليا ، وغادة .. كل واحدة منهن قادرة على أن تجعلك تحب المحاكم والأحكام والقضاة ، فأحلام بحق كلها أحلام ، لطيفة كالنسمة ، صوتها رقيق وملابسها بسيطة ، لا تجيد نطق حرف الراء وتنطقها ياء فتحب أن تستمع إلى كلماتها بحرف الراء . تعيش فى عالم جميل اسمه «أحمد لطفى» ، تحبه وتتفانى فى عملها من أجله ، يدق قلبها كلما دخل إلى المكتب ، وإذا طلب ملفا كانت أول من يسارع فى البحث عنه وإحضاره فوراً . مكتبه كخلية النحل يمتلئ بالموظفين والمحامين وكذلك الزبائن ، وهى لا تتخلى عن أملها فى أن يشعر بها أحمد وبنظرة واحدة فى عينيها ليقرأ ما تخبئه ، ومن يدرى فربما نظر ، وربما قرأ ، وربما كذلك فهم !!

ثم داليا .. لا تسألنى عن داليا ، فهى كزهرة الداليا ، شعرها جميل ، هيفاء ، مزعجة ، متمردة ، شقية ، مرحة بدرجة تحسد عليها ، فى خضم العمل وزحمته لا تكف عن النكات والقفشات ،

تذهلك بنشاطها وحيويتها ، قادرة على أن تعمل لوقت طويل دون كلل .. قد تصعد السلم فى اليوم عدة مرات بلا تعب ، إنها الشباب بعنفوانه وشقاوته وحتى تهوره .. وداليا هى الأقدر على أن تخرج أحمد لطفى من وقاره واتزانه وحتى تركيزه بمرحها وكلماتها المتتالية السريعة كأنها تحفظها ، وضحكاتها العالية تجعلك تلتفت .. تنظر إليها وتقول : ماذا يجرى ؟! ولكنها مجتهدة وجريئة وديناميكية . أحمد ينظر إليها بإعجاب . بانبهار أحيانا ، وربما بسعادة ، وربما بسعادة أكثر !! فهذه الزهرة البرية المتوحشة تحب القمر .. تحب أحمد لطفى !!

أما غادة فهى مديرة مكتبه ، جميلة صارخة الأنوثة ، ذات ساقين مرمريتين ، أضف لذلك إنها ذكية جدا كلماتها بحساب ، تصرفاتها بحساب . مدام غادة إذا سارت تحركت الدنيا ، وإذا تكلمت صمت الجميع . تدير مكتب أحمد لطفى بثقة واقتدار . أحمد لا يستطيع أن يفعل شيئا بدونها ، ولكن هذا النمر الجميل يسكن قلبه طفل وديع . إن أحمد يلازمها فى كل شىء . رفضت عدة عروض بوظائف أفضل ومرتبات أعلى ، إنها تريد أن تكون بجواره . كم مرة لمحت أحمد ينظر إلى شفتيها عندما يتحدث إليها . كم مرة رأته يراقب مشيتها ، إعجابها بنفسها جعلها تتصور أن أحمد لطفى لابد أن يلين وينهزم أمام هذا الجمال الآسر ، ولكنه لم يفعل . ترى هل يخفى شيئا هل استطاع

أحمد أن يكسر آدم داخله ويطرد حواء لا أحد يدرى !! أحمد وحده الذى يعرف !!

كلهن يحببن القمر ، ولكن من يحبه القمر ؟!! هل يشع القمر ضوءه على أحد آخر ؟ هل يعرف قدر نفسه وقوة نوره فيبتعد أحيانا ويقترب أحيانا أخرى آه لو يجيب القمر !!

تلقت غادة دعوة أنيقه للعشاء من أحمد لطفى . رقصت الفرحة فى صدرها . أخيرا فهم إعجابها به ، بل ويبادلها الشعور نفسه ، سيعترف لها ، بل ويخر صريع الجمال والذكاء والأنوثة . . أخيرا ياأحمد يالطفى !! نقرت غادة نقرات خفيفة على الباب وهى ترتدى بدلة بنفسجية بدت فيها كحورية من الجنة ، فتح لها أحمد وظهرت على وجهه علامات الانبهار والإعجاب . تبادلا كلمات التحية فى اقتضاب ، أخذت تنظر فى إعجاب إلى أركان البيت بينما ذهب ليعد لها بعض الشراب . احتفظت بهدوئها وتحفظها وحاولت أن تخفض ضربات قلبها المتعاقبة ، أقترب منها وقدم لها شرابا فى أدبه الجم . تمنت أن يتخلى عن وقاره بعض الشىء ويتحلى فقط ببعض الشجاعة ، ولكن هيهات !! وتعجبت من شأن رجل يتصرف بهذا البرود مع امرأة فى مثل جمالها وشبابها ، ولكن جرس الباب أيقظها من أفكارها ، نظرت إليه وسألته : هل تنتظر أحد ؟ لم يمهلها وهب إلى الباب .

تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها عندما سمعت صوت داليا

وضحكاتها ، وتصورت لحظة أنها ربما قد عرفت بأمر الدعوة ، فهى لا تتورع عن عمل أى شىء ، وكانت أيضا لا تطيقها . تبدلت شكوكها عندما سمعت أحمد يرحب بحضورها . نظرت كل منهما إلى الأخرى ، ولكن غادة بذكائها الوقاد أخفت دهشتها بسرعة وكأنها تعرف مسبقا بحضور داليا مما أثار غيظها .

قالت غادة فى حزن مكتوم «يا ترى عندك مفاجأة ثانية ؟ !» وقبل أن يرد كانت المفاجأة الأخرى على الباب عندما دخلت أحلام فى فستان زهرى جميل .. نظر ثلاثتهن إلى بعضهن البعض وقلن فى صوت واحد ممكن نفهم فيه أية ! فأجاب أحمد بطريقته السمحة وابتسامته السحرية ، وكأنه يدرك ما يعتمل فى عقل كل واحدة منهن : «وطبعا حتفهموا ، دقيقة واحدة» . وهنا خرجت سيدة فى مقتبل العمر من إحدى الحجرات ، اقتربت فى حياء ، كانت حلوة التقاطيع بلا إبهار ، نحيلة بعض الشىء .. تبادلن النظرات فى استغراب ، ولكن أحمد قطع عليهن دهشتهن حين قال : « أقدم لكم مراتى » !! .. مراتك هو أنت متجوز ؟ قالتها أحلام وهى فاغرة فاها .

« طبعا متجوز .. خلاف بسيط وانتهى .. قلنا نحتفل به مع أعز الأصدقاء » .

أخذت ضحكاتهن تهز البيت وهن يقلن فى صوت صاخب فى طريقهن للخروج :

-« مبروك .. مبروك » !!

سأبكى غداً

كانت تجلس فى مكتبها الوثير شاردة واجمة .. ونظرة حزن منكسرة تملأ عينيها .. ورنين التليفون يدق بلا انقطاع .. ورغم مظهرها الراقى وجمالها الهادى .. أحست أنها أتعس امرأة فى العالم .. فاليوم ، واليوم فقط ، وصلتها رسالة من خطيبها عمر يخبرها أنه قرر أن يبدأ حياته فى بلاد الثلج بحثا عن مستقبله .. شعرت فجأة أن أحلامها فى الزواج به قد تبخرت بلا عودة . كان قلبها يدق ويرتعش قبل أن تفتح المظروف .. تصورته يرسل فى طلبها للحضور إليه كما وعدها من عدة أشهر .. لكن سعادتها انتهت عندما قرأت كلماته الشحيحة : «أعتذر عن التأخير .. لكننى أرى بعد تفكير أنه من الأفضل لكل منا أن يعيش حياته بعيدا عن الآخر ؛ فالظروف الراهنة ليست فى صالحنا» . عدة كلمات استطاعت أن تهوى بها من جنة النعيم إلى أعماق الأرض فأطاحت بسعادتها .. كانت الكلمات كطلقات الرصاص .. لم تتصور يوما مجرد أن تأتى لحظة يخطر فيها على باله أن يجرحها !! كيف هانت عليه وواتته الجرأة كى يحطم قلبها وينهى بأحرف معدودة سنوات الحب التى طالت لأكثر من أربعة أعوام !! تمنت لحظتها أن يكون لها القدرة على البكاء .. على الانفجار !! سرحت فى أيامها الماضية .. ضحكاتهما .. لهوهما البرىء .. نزهاتهما ، أحاديثهما الشيقة .. كعاشقين .. كصديقين .. كيف أحبته .. ولماذا ؟ لم يكن أكثر الرجال وسامة أو ثراء ولا حتى أغزرهم علماً .. كان رجلا عادياً بكل المقاييس .. وتساءلت : كيف

نحب أناساً بعينهم ونبتعد عن آخرين دون سبب محدد لم تسع يوما لحبه أو تنتظره أو تحلم به .. ولم تدرك مقولة «إننا قدريون حين نولد وحين نموت وحين نتزوج » إلا بعد أن اقتحم حياتها واستحوذ على مشاعرها كزميل عمل ، فكيف تمكن من غزو حياتها الهادئة .. وتحريك بحيرتها الراكدة فأحالها إلى بحر ثائر بالعواطف والمشاعر ؟ استطاع حتى أن يغير من عاداتها اليومية .. فمنحها طاقة الاستيقاظ المبكر .. والحرص أكثر على أناقتها واختيارها لملابسها وأسلوب تزينها .. حفزها على العمل والتفوق .. وهبها أسباب الحياة .. فآمنت بفكره ومنطقه . وأشعل نور حياتها بعد أن كادت تكفر بالحب ، فلم يكن لديها وقت لأى شيء .. يالحظها الغريب .. إن من منحها كل هذه البهجة .. هو الذى غمرها بكل هذا الحزن .. فما الذى يدعها لأن تعيش الآن بعد أن خرج فجأة من حياتها ؟ ماذا تفعل دونه ؟.. وكيف تشعر بالحياة .. بدبيب الحياة بعد رحيله !!

لقد أحبته أعواماً ، كم يستغرق نسيانه من العمر ؟؟ آه لو تغمض عينيها وتفتحهما فتجد أمنيتها وقد تحققت .. لكم تاقت أن تنفجر فيها طاقة من كراهية فتمحوا اسمه من ذاكرتها وتختفى ملامحه عن عينيها إلى الأبد لكنها تحبه .. مازالت تحبه ، وتمنت لو بعث إليها باعتذار .. ستسامحه .. لا لأنها تصدقه ، بل لأن ذلك ما تريده ، ولتبقى على حبه داخلها !!

لكنه لم يفعل .. وعليها أن تسير الطريق وحدها .. وتمشى

المشوار بلا رفيق .. فهل تنجح وقد هجرتها الأحلام الوردية ودمرها الحزن ؟!

قالت تعزى نفسها : « أتريدين الحصول على كل شيء .. العيشة الرغدة .. المركز المرموق .. الجمال والشباب وكذلك تريدين الحب ؟! كم أنت متفائلة أكثر مما ينبغي . عليك أن تتنازلى باختيارك عن شيء من رغباتك بدل أن تخضعك الحياة للتنازل على غير إرادتك . ووسط عاصفة مشاعرها المتلاطمة سمعت نقرا خفيفا على الباب .. كانت السكرتيرة تذكرها بأنه قد حان موعد الاجتماع الذى ترأسه أسبوعيا مع مديرى الأقسام .

جمعت أوراقها وخرجت .. رسمت ابتسامة على شفتيها : سارت فى الممر الطويل ترد السلام على كل من يقدم لها التحية .. دخلت قاعة الاجتماعات .. كانوا فى انتظارها .

جلست .. انتظروها كى تفتح الجلسة وتعلن عن جدول الأعمال .. ما إن همت بالكلام حتى شعرت بصوتها يتحشرج .. تناولت قليلا من الماء .. تحكمت فى الدموع التى هاجمتها وكادت تطفر من عينيها .. قاومت بعنف .. سيطرت على أعصابها .. أحست أنها فى مواجهة وحش كاسر يتحفز لهزيمتها وهلاكها والإطاحة بها .. تماسكت فى عناد وكبرياء ، وانطلق صوتها واضحا قويا فى شجاعة وثقة :

ـ هدوء من فضلكم ـ بسم الله ـ نفتح الجلسة .

صغيرتى لبنى

كان يسير ببطء داخل الصالة الكبيرة المزدحمة . أصوات المكبرات تعلن عن موعد وصول ورحيل الطائرات ، ناس تودع بالحزن وناس تستقبل بالفرح ، صراخ وبكاء وأطفال . عالم آخر داخل صالة المطار ، أما هو فقد كان ذاهلاً .. فلا أحد يودعه أو يحزن لفراقه .

وربما لن يسعد أحد بعودته ويكون فى انتظاره . كل أحلامه فى السفر وتحقيق الأحلام وتحويشة العمر تبخرت فى لحظات عندما أخبره صاحب العمل أنه تم الاستغناء عنه وعليه أن يعود إلى بلده على الفور . رفع نظارته الطبية من على وجهه عندما انزلقت من العرق والاضطراب . أخذ يتلفت يميناً ويساراً حول حقيبته الوحيدة خوفاً من فقدها هى الأخرى مثل الوظيفة !!

اقترب من الموظف المسئول الذى سلّمه جواز السفر والتذكرة . كل شىء داخله يُشعر بالحزن والانقباض . فكر فيما سيقول لابنه الصغير عندما يسأله عن المسدس ، أو طفلته عندما تستفسر عن عروستها ، وابنه الأكبر عن وعن .. ماذا سيقول لهم ؟إنه لم يمض على رحيله عنهم سوى أشهر معدودة ، وها هو يعود سريعاً محملاً بالهموم والمسئوليات . لم يُعر صوت الموظف اهتماماً وهو ينادى على المسافر الآخر ويسلمه أوراقه .

فى أثناء انتظاره لموعد إقلاع الطائرة اقتربت منه سيدة شابه . قالت فى حياء : «إذا سمحت ممكن بنتى الصغيرة تركب معاك »؟

نظر إليها ، ثم انصرف ببصره بعيداً كأنه لم يسمعها ، فأعادت

عليه السؤال وهو فى حيرة فقال : «يعنى إيه مش فاهم» !

قالت فى حزن : « بنتى جدها منتظرها فى المطار وبمجرد وصول حضرتك حايستلمها منك » .

أراد أن يعتذر لها فى أدب ؛ فلديه ما يكفيه .. لكنها توسلت إليه فى أدب . نظر إلى الطفلة .. كانت تقريبا فى عمر ابنته .. قال فى استسلام «مافيش مشكلة» .

وقفت الأم تودعهما والدموع تملأ عينيها ، بينما كانت الصغيرة لبنى تمسك بيده وباليد الأخرى تحتضن عروستها ، تلتفت من حين لآخر إلى أمها وزوجها يلف ذراعه حول كتفيها . تشير بيدها الصغيرة مودعة وسحابة من الحزن تخيم على وجهها الملائكى .

ظلت لبنى تبكى وهى جالسة بجواره .. فستانها القصير يصل إلى ركبتيها .. صغيرة الحجم .. كبيرة الهموم . شعر بالأسى لها وهى الطفلة الصغيرة تضطرها الظروف أن تسافر مع رجل غريب .. حزينة منكسرة .. لا تبدو عليها سعادة طفلة قضت إجازة دافئة مع والدتها . استندت برأسها الصغيرة إلى زجاج النافذة ونامت ، دموعها على خدها الحريرى ، بينما رقدت عروستها الصغيرة فوق ساقيها النحيلتين .

نظر إليها فى شجن وهو مستند برأسه إلى الخلف ، وقفزت على الفور صورة ابنته وهى تتعلق برقبته وضحكاتها الصاخبة عندما يحضر لها الحلوى . تذكر وجه زوجته النضر وابتسامتها التى لا تفارقها رغم

كل مصاعب الحياة . طافت بذهنه أوقاته السعيدة وسط أسرته الصغيرة وهم يتناولون طبق الكشرى الساخن الذى تجيده أم أولاده .. مباريات الكرة التى يتنافس فيها مع ابنه الأكبر .. آخر مرة لعبا فى الحارة المجاورة للمنزل أطل على لبنى فوجدها هزيلة حزينة ، انتابته رغبة فى احتضانها والحنو عليها .

أفاق من أفكاره على صوت المضيفة وهى تحضر الطعام ، أيقظ الصغيرة لتتناول أى شىء ولكنها أبت ، وضع يده على شعرها وقال لها فى حنان : «لازم ياحبيبتى تاكلى علشان تكبرى ، وشوفى أنا حاكل كمان» ، نظرت إليه فى حيرة فأضاف : «وحاقولك حكاية حلوة» .

تناولا الطعام ، بينما أخذ يقص عليها حكاية من الحكايات التى اعتاد أن يقصها على طفلته !

فى صالة الاستقبال ظلت يدها النحيفة قابضة على يده وهو يتلفت يميناً ويساراً ، اقترب منه رجل مسن منادياً «لبنى حبيبتى» .. انفلتت يدها وجرت مسرعة فرحة نحو صدر جدها : «جدو جدو .. وحشتنى أوى» . تبادلا التعارف .. ثم صاحت لبنى : « عمو مش حاتيجى معانا؟ . لازم تزورنا . أنا بحبك ياعمو » . زال عنه العبوس .. احتضنها مودعاً .

استنشق هواء ديسمبر البارد .. ملأ به صدره .. شعر بالانتعاش .. انفرجت أساريره بسلامة العودة !!

تائهة وسط السحاب

لماذا يتهمونني بالنزق والجنون ؟؟ لماذا يتهمونني بأني خرجت عن المألوف ؟ لماذا أصبحت حكايتي هي حديث العائلة؟ وها هي خالتي تقاطعني وتمنعني من زيارتها . يالهم من قوم عديمي الرحمة ! وهل أنا في حاجة إلى رحمتهم ؟؟ لا .. بل إنني في احتياج لتفهمهم وحسن إدراكهم ، وهاأنذا أواجه العالم مرة أخرى وحدى .

ما هي جريمتي .. أني تزوجت ؟؟ وأية جريمة في ذلك ؟ ؟أني تزوجت رجلاً يضاعف عمره عمرى ؟؟ وماذا في ذلك ؟ إنه الأقدر على إسعادى لقد حذرنى عاصم من عاقبة الزواج منه . ولكن هيهات أن ألين أو أصمت ، ففي زواجي منه سعادتي ، بل فيه أمني وأماني .. الأمان الذى حرمت منه طوال حياتي .

يوم كنت صغيرة ورأيت أمي تحزم حقائبها ، وتتركني ، وتترك البيت ولا تعود ، وسؤال على وجهي : إلى أين ؟! ضاع مني أماني وأنا في أعوامي الصغيرة . يوم استيقظت من نومي فزعة ووجدت نفسي وحيدة في المنزل ، ولم أر والدى بجانبي .. ملأني الذعر ، وتملكني الفزع ، وهرعت إلى النافذة .. أفتحها لأرى أبي في الشارع . وتدلى جسدى النحيل ، وأنا أصرخ : «بابا تركني كما تركتني أمي» . وكدتُ ألقي بنفسي من الشرفة . ورآني في ذلك اليوم «عمو عاصم» فجاء مسرعاً وكسر باب البيت ، احتضنني وقال لي في حنانه المعهود : «ما تخافيش ياسلوى أبداً طول ما أنا عايش» .

وقتها شعرت بالأمان وزال عني الرعب . مرت دقائق معدودة عندما عاد والدى ولمح الذعر فى وجهى وشحوب لونه ، كنت مازلت أحتمى بصدر عمو عاصم ، فمال إلى وأخذنى فى عطف وظل يربت على شعرى ويعتذر لى عن خروجه .. وكنت أردد : « إنت حاتسبنى زى ماما ما سابتنى » . لم أكن أعرف وقتها أن كلماتى تعصره حزناً . ولم أشعر إلا بنفسى ومخاوفى . وكان والدى فى عطفه وحنانه الفياض تسيل دموعه ويقول :

«أبدا مش حاسيبك ، ولو ما لقتنيش .. حتلاقى عمو عاصم» .

وهكذا نشأت وأنا لا أعرف فى عالمى سوى هذين الرجلين . كان عمو عاصم صديق والدى الوحيد . وكان يقطن فى البيت المجاور لنا ، يصغر والدى بعدة أعوام ، حلو المعشر ، مرح الحديث . كان يكمل والدى فى أمور كثيرة ؛ فوالدى يميل إلى الهدوء والتأمل والرومانسية والتدخين الكثير ، بينما كان هو واقعيًا .. سريعاً ويكره التدخين . لم أكن أتصور حياتى بدونهما . فكم من أمسيات قضيتها بينهما وهما يلعبان الشطرنج أو الدومينو . كم من ليالٍ كان والدى يستذكر معى المواد الأدبية ، بينما عمو عاصم يراجع لى المواد العلمية .

وكبرتُ ولا توجد صورة واحدة لأمى فى البيت . لم يقل لى أبى إنها ماتت ، ولم تفارقنى صورتها وحقيبتها فى يدها وهى تخرج من

البيت ، والنظرة التى ظلت تحيرنى أعواماً طويلة ولا أعرف سرها . نظرة تملؤها الحيرة والتشفى والخلاص .

وكلما ذكرتُها لوالدى كان يتغير ويتبدل لم يكن يعيب فيها أو يتهمها فى شىء .. بل كان تعليقه الوحيد «لها عالمها ولنا عالمنا» . وكثيراً ما كنتُ أشفق عليه من الضيق وأنتظر الساعات التى يزوره فيها عمو عاصم ليفرّج عنه . ومع الأيام علمت أن أمى تركتنى لتتزوج من رجل آخر .. كان هو الآخر بدوره متزوجاً ولديه أطفال ، وكلاهما ترك حياته وأسرته ليبدءا معاً حياتهما المشتركة . وظلت علامات الاستفهام تملأ رأسى ولكنى لم أجد إجابة واحدة عن تساؤلاتى !!

وأهم سؤال .. هو : أين أمى الآن ؟؟ فكم كنت أود أن أبثها أسرارى الخاصة . أسرار كل فتاة تحتاج أن تسرّها فقط لأمها . كنت أشتاق إلى حضنها ، والحياة الخاصة التى تربط الأم بابنتها ، وحكاوى النساء ، وأصابع طلاء الشفايف ، والملابس الداخلية . أين أنت يا أمى الآن ؟؟ ألم تفكرى أن لكِ ابنة كبرتْ وفى حاجة إليك .. إلى حضنك ودفئك ؟!

رحل والدى بعد أن أنهيت دراستى الجامعية بأيام قليلة . يا لها من أيام قاسية عشتها . تصورتُ أن الحياة قد توقفتْ تماماً .

أيقظها عاصم من أفكارها .. عندما وضع يديه على عينيها ،

فرفعتها فى رقة وقالت له على الفور :

«لا أريد أن أغمض عينى، أريد أن أراك دائماً أمامى» :

استدارتْ نحوه وألقت بنفسها فى أحضانه ، شعرتْ بدفء أنفاسه وسخونة جسده ، وتهدّجَ صوتُها بعض الشىء ثم أخذت تعبث فى شعر رأسه الذى غزاه الشيب وقالت له فى دلال : «ألا يجيد الحب إلا كبار السن؟!» .

فضحك ضحكته الحلوة العذبة ونظر إليها طويلاً وقال :

«آه يا سلوى .. لو تعلمين مدى حبى وحرصى عليك .. كل ما أرجوه ألا أسبب لك أى حزن» . فأدركت ما يرمى إليه وقالت له :

« لا تفسد على سعادتى .. كم أشعر بالرغبة فى الانطلاق والطيران .. أشعر أنى فراشة سابحة فى الجو .. كما أود أن أحلّق فى الفضاء الفسيح وأبتعد عن الأرض وهمومها .. ليتنا نسكن فى طائرة فى الجو » .

«ولم لا تعملين فى الجو مادمت تضجين بالأرض؟» .

«إنه حلم صعب المنال » .

« ما رأى حبيبتى الصغيرة فى أن تتذوق طعام زوجها العجوز ؟!» .

« بل قل زوجها الحبيب » .

كانت سويعاتنا الخاصة قليلة ولكنها نادرة وغالية .. تركت فى نفسى أثراً للحب وبصمة للمودة والألفة .

خمسة أعوام مضت على زواجنا ، لم يعكر صفو حياتى إلا قطيعة الأهل وجلسات النميمة ، والحكايات عن زواجى من عاصم .

نعم ، ربما لهم الحق فى التندر بحكاية زواجى .

فعندما طلبنى عاصم للزواج كان كل ما يدور فى خلدى أنى لا أريد أن أبيت بمفردى ، وكان هذا هو البديل . كانت حياتى خالية إلا من الحزن والخوف . وعندما انتقلت إلى بيت عاصم لم يتغير أى شئ فى علاقتى به . استغرقتُ بعض الوقت حتى استطعتُ أن أتخلى عن لقب «عمو عاصم» وأناديه باسمه فقط لم يحاول أن يشعرنى بتغير نوع العلاقة بيننا .

شعرت فقط أنى أعيش فى كنفه وأستظل بظله .

ومضى وقت طال أم قصر لا أذكر ، ولكننى أذكر عندما وجدنى أبكى بحرقة .. مسح دموعى وضمنى إليه وقتها فقط شعرتُ أنى زوجته ولست .. طفلته !!

طال انتظارى فى الشرفة ، وخيم الليل ، وسرتْ برودة الشتاء فى جسدى . وبدأ خفقان قلبى يعلو ويعلو تحسباً لأى شئ ليس فى الحسبان ، وصدق إحساسى عندما سمعتُ جلبة وضوضاء فى نهر الشارع ورأيت «عاصم» محمولاً والدماء تنز منه . أدركتُ أن الخيط الذى يربطنى بالحياة قد انقطع . رحل الرجل الوحيد الذى شعرت أنه لولا يداه لوقعتُ على الأرض . والذى شعرتُ معه أن تحت قدمىّ أرضاً

صلبة ، أما الآن فأنا غير قادرة على النهوض .

لم تخرج من غرفتها عدة شهور ، عزفت عن الناس حتى إنها لم تكن تتبين الليل من النهار واليوم من الأمس . وشعرتْ برغبة قوية فى الرحيل وعدم الرغبة فى مواصلة رحلة الحياة .

وأخذت صديقتها تحاول معها فى دأب لتخرجها من غرفتها إلى حيث النور ، حتى إنها وقعت بها على الأرض ولم تستطع أن تفتح عينيها وترى الضوء . يالها من عتمة موحشة تلك التى تعيشها !

« سلوى »..

قالتها صديقتها وهى تمسك بسماعة التليفون وسلوى ترفض الرد .. فمن يطلبها أو يتذكرها !!

أخذت السماعة فى أعياء : « أفندم » .

فسمعت صوتاً عذباً لسيدة تقول بسرعة :

« مبروك يامدام .. طلب تعيينك فى الشركة إتقبل . بكرة الساعة ثمانية تكونى موجودة ».

وكادت تغلق الخط ..

« طلب إيه ؟ .. ووظيفة إيه .. إننى أكيد غلطانة فى الاسم » .

«وظيفة مضيفة فى شركة الطيران . طلبك عليه توصية من مدير الفرع .. والأستاذ / عاصم السلحدار هو اللى قدّم الطلب ».

وأملتْ عليها العنوان ... وأغلقت الخط بسرعة .

لم يخبرها أبدا بأنه قدّم لها فى وظيفة مضيفة . كان يعرف كم كانت تتمنى ذلك . حتى بعد موته كان يفكر فيها ويأخذ بيدها !! ما أحوجها إليه ... فعلاً لا يجيد الحب إلا كبار السن ! وأجهشتْ بالبكاء .

حكاية امرأتين

كانت نجوى تستعد للذهاب إلى عملها .. سكرتيرة فى دار نشر .. شابة فى بداية حياتها العملية ، ترتدى الملابس وفق آخر صيحة ذات الألوان الفاتحة ، والبنطلونات الضيقة ، وتترك شعرها الطويل مجعداً ، وتضطر من حين لآخر أن ترفعه عن عينيها ، كانت تشعر بالامتعاض .. وربما المغص كلما تذكرت أنها ستلتقى فى الصباح الباكر بوجه مديرتها الكالح ، وأوامرها التى لا تنتهى ، وطلباتها التى لا تفرغ . أين هى من مديرها السابق بذوقه وخفة ظله وإطرائه لأناقتها !! أما مدام عصمت فلا سبيل لإرضائها .

دخلت نجوى مكتبها فرأت قائمة طويلة من الأشغال عليه فعلمت أن مدام عصمت قد حضرت . ظلت تتساءل فى استنكار : كيف ومتى جاءتها بكل هذا العمل المتراكم ؟! أفاقت من شرودها على دخول عصمت .. سيدة فى الثامنة والأربعية من عمرها ترتدى تاييراً رمادياً أنيقاً ، ذات شعر أسود قصير وتقاطع متناسقة ويبدو عليها النشاط والهمة . ألقت تحية الصباح على نجوى فى عجلة . ونبهتها إلى الأوراق الموجودة على مكتبها مؤكدة أن عليها أن تنجز كل هذا العمل قبل نهاية اليوم ، وتركتها وخرجت مسرعة .

ارتاحت نجوى لخروجها ، ونحّت الأوراق جانباً وأخذت تحتسى فنجان القهوة ، تصفحت الجرائد ثم أمسكت التليفون وظلت تحادث صديقتهاحديثاً نسائياً طويلاً !! وانتهى اليوم بينما لم تنته إلا من جزء

بسيط جدا من المهام التى طُلبت منها .

استاءت مدام عصمت من نجوى لكسلها وتراخيها وراحت تعنفها على إهمالها . تحججت نجوى بأعذار واهية وهى تجزّ على أسنانها كمداً من هذه المرأة المتجبرة ، بينما تشتعل عصمت غيظاً من برود نجوى . تركت المديرة مكتبها وهى تردد : جيل لا يعرف الإحساس بالمسئولية ، ثم أدرفت : «أعتقد أن مثل هذه البنطلونات لا تناسب مكان العمل» . بادرتها نجوى فى جرأة : «إن الملابس مسألة شخصية» . تعجبت عصمت من جرأتها وتمنت لو صفعتها . نظرت إليها طويلاً وكأنما تريد أن تقول إنك تسيئين إلى نفسك أكثر مما تظنين .

خرجت نجوى مطأطأة الرأس .. تنفر غمًا ، ولكنها كانت تضحك فى قرارة نفسها معللة ثورة المديرة بأنها تغار منها ، وفى صباح اليوم التالى أصرت على أن ترتدى الملابس نفسها دون أدنى تغيير !!

إنها لا تحتملها فى ساعات العمل ولا تطيق التعامل معها حقًا . إننا لا نختار رؤساءنا بل يُفرضون علينا فرضاً !! كيف ستذهب مع مدام عصمت إلى هذا المؤتمر ولمدة ثلاثة أيام تقضيها معها ليل نهار ؟! حاولتْ أن تتنصل ، أن تتمارض وتأخذ إجازة مرضية ولكنها لم تفلح ، لم تنم أياماً وهى تفكر فى رحلة العمل التى أصرت مديرتها على اصطحابها معها خلالها .

وفى قاعات المؤتمر حيث العمل على أشده ، كان على نجوى أن

تتخلى عن كسلها وأن تلهث وراء عصمت وأن تمتثل لأوامرها ، وكانت بطبيعتها بطيئة الخطوة ورتيبة الحركة ، كان يتعين عليها أن تدوّن الملاحظات وأن تعود فى المساء لكتابتها . ظلت تلعن اليوم الذى حضرت فيه عصمت إلى العمل . تتعجب من نشاطها وحيويتها وهى ربما فى عمر والدتها ، وتتساءل فيما بينها : « من أين تأتى بكل هذا النشاط والحيوية !! ».

فى المساء ألقت نجوى بنفسها على الفراش ، لم تتصور أنها ظلت واقفة على قدميها أكثر من ست ساعات ، ولم تتصور أنها يمكن أن تبذل كل هذا المجهود . ولم يجل بخاطرها هذا على الإطلاق وهى الفتاة المدللة ، لعنت حرية المرأة وعمل المرأة وكل الأفكار التحررية .. وبينما هى ملقاة على فراشها دق جرس التليفون وكانت مديرتها ، تذكّرها بجدول أعمال الغد ، وتطلب منها أن تستعد صباحاً ، وقبل أن تحييها تحية المساء طلبت من نجوى أن ترسل بالفاكس التقارير إلى المكتب الرئيسى بالقاهرة ، كادت تنفجر منها ومن طلباتها .. ودت لو تغلق الخط وتعجبت أنها مازالت تعمل حتى ساعة متأخرة ، وظلت تردد : من أين تأتى بكل هذه الطاقة ؟!!

فى منتصف الليل شعرت نجوى بآلام شديدة ، ظلت تتلوى من الألم ، وازداد عليها الوجع وأخذت تصرخ ، لم تعد تحتمل هذا العذاب، أمسكت بسماعة التليفون ،طلبت إدارة الفندق لتساعدها ، فلم تستجب ، وطال انتظارها ، فتك الألم بها ، ورغم ذلك لم تفكر أن

تتصل برئيستها ، وفجأة سمعت رنين التليون ، رفعت السماعة وكان المتحدث مدام عصمت ، كانت تتحدث بسرعة ولكن نجوى لم تستطع الرد عليها ، وقعت مغشياً عليها من الألم وصوت عصمت ينادى : «ألو .. ألو ..» .

هرعت عصمت من غرفتها ، وجدتها ملقاة على الأرض ، أسرعت فى طلب الطبيب الذى قام بعمل اللازم وطلب نقل دم على الفور ، كان دمها من نفس فصيلتها فلم تتردد .. ومدّت ذراعها ، نظرت إليها نجوى وهى نصف مغمضة ولم تصدق ، وكأن عصمت قرأت التعجب فى عينيها فقالت ممازحة لها :

ـ حتى يصبح دمنا ثقيلاً .. أنا .. وأنت !!

ابتسمت نجوى ابتسامة باهتة وسط أوجاعها وتعجبت من لهفتها وجزعها عليها .

لم تغادر عصمت غرفة نجوى . ظلت قلقة عليها وتستفسر عن أسباب علتها كأنها أمها . شعرت نجوى بالخجل من نفسها ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء .

فى صباح أول يوم عمل بعد شفائها ، ذهبت نجوى مبكرة على غير عادتها ، مستبشرة ، ترتدى «تاييرا» ورديًا أنيقاً لملمت شعرها فى «شنيون» جميل .. كانت جادة ومقبلة على عملها بحماس وسط دهشة الزملاء .. اتجهت إلى مكتب مدام عصمت لتلقى عليها تحية الصباح وتبدأ جدول أعمال اليوم !!!

قلب جديد

صوته العالى يهز السيارة وهو ينهر سائقه الخاص عندما ضغط فجأة على الفرامل ليتفادى عربة أخرى وبّخه وانهال عليه بكَمّ هائل من الألفاظ المنتقاة ، كان مستغرقاً فى قراءة جريدته عندما توقف فجأة. لم يأبه السائق كثيراً بهذا الصياح ؛ فقد اعتاد عليه كل صباح . قال لنفسه : «على الأقل له عذره» فكم من مرة انفجرت ثورته وثارت ثائرته دون سابق إنذار أو سبب يذكر . وأخيراً وصل مدحت بيه بسلامة الله إلى مكتبه .

وقف الجميع فى استقباله . سار وكرشه الكبير أمامه ، وهيئته الضخمة تعلن عنه . حدثت حالة من الارتباك لدى وصوله .. فهناك من أسرع إلى إحضار الشاى ، ودخل آخر بعدة ملفات وأوراق ، وثالث يرد على أحد التليفونات الموجودة بالمكتب والتى لا تكفّ عن الرنين ، وصوت مدحت بيه لا ينقطع عن الصياح والتوبيخ لكل من حوله .

مدحت بيه شاب فى نهاية العقد الثالث من عمره ، ضخم الجسم قوى البنيان ، يبدو أكبر من عمره الحقيقى ، يخشى الكثيرون بطشه ، معروف عنه أنه دائم الصراخ والشجار مع الجميع . ونظراً لحساسية مركزه وأهميته ، كان الجميع يطلبون وده ويتحملون عصبيته أملاً فى أن ينهى لهم مصالحهم .

التقط مدحت بيه التليفون ، سمع كلاماً كثيراً ولم يجب ، وضع السماعة فى صمت دون أن ينطق بكلمة ، تصبب وجهه عرقا ، شحب

لونه ، بدأ يجد صعوبة فى التنفس .. وما هى إلا لحظات حتى غاب عن الوعى . وسرت الأخبار والشائعات فى التو واللحظة حتى قبل أن يصل الطبيب ، وتكهن الجميع أن المتحدث كان البيه الكبير .. وأن مدحت بيه ضاعت عليه الفرصة القادمة فى منصب أعلى ، بل وربما يفقد وظيفته .

على فراش المرض رقد جسده العليل ، شعر بخوف رهيب يزلزله .. نعم .. الذى كان يخيف أى أحد بمجرد نظرة عين .. كان الخوف يملؤه .. والتفت حوله فوجد الغرفة وقد خلت من الجميع إلا بعض الأقربين .. فهم المغزى وامتلأت نفسه حزناً . عقله شارد فى العملية التى سيجرونها له غدا .. آه سوف يفتحون قلبه .. هل سيعيش .. هل سينجو ؟؟ خلافات .. سيجدون فى قلبه .. خلافات .. وأحقاد . وخصومات لا حصر لها . ثم كيف يسمح لهم أن يخدروه؟ . إنه لم يرض بعملية اللوز حتى لا يفقد الوعى .. من يدريه أنه سيستيقظ ثانية؟!.. يخشى أن يسلم لهم قلبه .. أغلى ما يملك .. وبه كل أسراره ومعاركه مع أصدقائه قبل خصومة !!. يرتعد من الداخل ويتصور أنه فى كابوس قلبه الذى طالما قال إنه من حديد .. ضعف ووهن .. ويطلب المساعدة !!!

فى الصباح دخل عليه الطبيب .. أخذ يطمئنه بكلمات لم تجد منه استجابة .. إلى أن قال الطبيب : «سيصبح لك قلب شاب فى العشرين

.. قلب على الزيرو » .. فابتسم ابتسامة واهنة وسط مخاوفه .. أسلم حياته وجسده لرعاية الأطباء .

لم يصدق أنه نجا وأنه يتلقى التهانى بنجاح العملية .. لم يصدق ان قلبه فتح وأغلق مرة أخرى .. لم يصدق أنه عاش .. نظر إلى كل من حوله وبعض الزهور التى تزين الغرفة .. وأراد أن يتأمل كل فرد على حدة .. وأراد أيضاً أن يتأمل حياته كلها .. شريط طويل من الذكريات يمر أمامه وهو ساهم .. واجم .

وفجأة تذكر كلمات الطبيب : سيكون لك قلب جديد .. قلب على الزيرو .. ملأ عينيه بوجه زوجته البشوش.. التى طالما تحملته وتحملت عصبيته .. كان وجهها الجميل آخر شيء رآه قبل أن يتسلم قلباً جديداً .. نظر إليها طويلا وقال فى حنان : «إن كنت أقدر أحب تانى .. أحبك أنت» !!

هي وهـــو

اتهمها الكل بأنها انتهت ككاتبة وأنه لم يعد لديها ما تضيفه ، وها هى نسخ كتابها الأخير مكومة فى مخازن الناشر ، لم تجد من يشتريه أو حتى يقرؤه .. ترى : هل نضب معينها ؟.. هل انطفأت دهشة الحياة داخلها ؟.. إنها تشعر بالخواء بينما كانت دائما تحس بالإمتلاء . عندما تكتب تمتلئ سعادة ويجرى القلم سريعا على الورق ويسابق أفكارها .

كانت تزهو بنفسها عندما يطبع كتابها ويتهافت عليه القراء ، اشتهرت ولم تكن تبحث عن الشهرة ، أثرت ولم يكن أبداً الثراء هدفاً من أهدفها ، والآن : هل تعتزل الحياة ؟ أم ماذا تفعل ؟؟ إن الكتابة بالنسبة إليها صديقتها ورفيقتها ، إنها كل حياتها ، بين قلمها وأفكارها عاشت مع أبطالها وخلقت عالمها الخاص الذى أحبته وعشقته ، عوضها عن ضياع الحب وفقدان الزوج والأطفال . كل هذه الخواطر كانت تجرى جريان النهر فى رأس منى .. الأديبة المشهورة .. وهى تقود سيارتها بعد عودتها من عند ناشرها الذى نزل كلامه عليها كالماء المغلى . أخبرها أن كتابها الجديد لم يلاق أى نجاح وأن عليها أن تفتش عن أفكار جديدة لتكتب عنها ، وأضاف : «ربما تحتاجين إلى حب ينعش قلبك ويخرجك من قوقعتك» !! لم تكن فى حاجة إلى حب .. بل كانت فى حاجة إلى إلهام !! لم تجد الحب عندما كانت شابه .. فهل ستجده الآن وهى امرأة على مشارف الستين ؟!

حزمت حقائبها وقررت أن تذهب إلى بيتها الصغير المطل على البحر .. راحت بحثاً عن الاسترخاء .. وهرباً من القلق !!

خرجت لتمشى قليلاً على شاطئ البحر ، لحق بها كلبها «توتو» ، أخذت تبلل قدميها فى الماء ، ثم رفعت سروالها قليلا وأخذت تعبث بالماء .. بدأت تشعر بالانتعاش .. وخف التوتر الذى كان يعتريها .. استبشرت خيراً .. فجلست وأخذت تتصفح الجريدة .. واستلقى «توتو» بجوارها مستكيناً .

سمعت بكاء مكتوماً .. التفتت .. وجدت طفلاً جميلاً يجلس وحده وقد تصبب عرقاً ، كان يرتدى ملابس أنيقة ونظيفة وحذاء وجورباً ، شعرت بالإشفاق عليه وتعجبت من حاله ؛ فلم يكن مظهره يدل على أنه يستمتع بالبحر واللهو الجميل مثل بقية الأطفال ، عن قرب وجدت سيدة مسنة تعمل بالإبرة ولا تعير الطفل اهتماماً ولا تبالى ببكائه .

ازداد بكاء الصبى .. التفتت العجوز إليه .. نهرته .. يبكى .. جذبته من يده عائدة .. أخذ يصيح .. يبكى .. يتمرد عليها .. فى أثناء مرورهما .. نبح «توتو» تجاههما .. فانزعجت السيدة .. بينما اقترب الصغير منه يريد أن يلعب معه قائلاً : «عاوز أحط إيدى على البوبى .. يا تيتة» .. قامت منى من جلساتها وقالت للجدة «خليه يلعب شوية» . قبل أن تكمل عبارتها .. كان الولد قد نزع يده من

جدته وانفلت منها .. اقترب من الكلب غير عابئ بنباحه .. ولم تمض سوى لحظات حتى أخذا يلعبان معاً .. رمقته الجدة فى حيرة وقالت : أعمل إيه .. الولد متعب أوى ». وجدتها منى فرصة لتبادل الحديث مع السيدة ، فعرفت أن هذا الطفل الجميل هو حفيدها لابنها ، وأنها ترعاه لانفصال والديه اللذين انشغل كل منهما بحياته . زفرت الجدة تنهيدة حزن على حال الطفل ، وبعدها تطرق الحديث إلى موضوعات عدة ومن خلاله عرفت منى أنهم جيرانها الجدد !!

فى الصباح التالى استيقظت على جرس الباب المستمر ، قامت فزعة ، لم يكن أحد يعرف بوجودها .. ملأ نباح الكلب البيت ، شعرت بالضيق ، فوجدت الجدة أمامها وعلامات الفزع على وجهها ، بادرت معتذرة لمنى عن إيقاظها فى هذا الوقت المبكر .. وقالت متلعثمة مضطربة :

جد كريم حالته خطرة ولازم أروح معاه المستشفى . ممكن كريم يستنى شوية معاك ؟!! كانت منى تربط حزام الروب وتسوى شعرها .. غير قادرة على جمع أفكارها .. والدهشة تعقد لسانها .. وفى لحظات كانت الجدة قد اختفت وهبطت السلم مسرعة !!

عندما أفاقت منى من دهشتها ونومها وجدت « كريم » وقد ألقى بنفسه على الفراش واستغرق فى النوم دون أن يخلع حذاءه .. نظرت إلى وجهه وهو نائم فى دعة دون أن يعكر صفوه أن ينام فى بيتها أو بيت جدته .. تأملته وتأملت براءته ، وفى لحظات قامت بخلع حذائه ،

شدت عليه الغطاء ثم أكملت نومها بجواره !! فتحت عينيها فوجدته قد لف ذراعه حول رقبتها في عناق جميل .. تحسست يديه الصغيرتين .. شعرت بإحساس حلو يخدر مشاعرها .. حركت يديه في هدوء حتى لا يستيقظ .. فوجدته قد فتح عينيه .. نظر إليها وتثاءب قليلاً .. ثم سألها عن جدته وسبب مجيئه وكأنه لا يتذكر أى شيء .. وعندما أجابته.. قال لها : خلاص ، نبقى نروح البحر .. وقفز مسرعاً من الفراش في سعادة وهو يداعب «توتو» ويقول له : «وأنت ياسى توتو لازم تيجى معانا» .

شبك يده في يدها ، وفي اليد الأخرى أمسك بـ«توتو» .. كان يمشى متبختراً مرحاً .. تعجبت من مرحه وسعادته .. جلس ثلاثتهم تحت الشمسية ، وبعد قليل قال لها : « نفسي يا طنط أنزل البحر» .. نظرت إليه ، وقبل أن تجيب . كان قد خلع ملابسه فظهر جسمه الصغير وضلوعه . جذبها من يدها ونزلا معاً إلى البحر .. يعانقها أحياناً !! يقفز فوق ظهرها فيكاد يخنقها .. لم تستمتع من قبل بالاستحمام مثلما استمتعت مع هذا الطفل الجميل !! ويا له من شعور عندما كان يقهقه ويقول لها معاكساً : «باعرف أعوم أحسن منك» ! تضحك .. ولا تملك إلا أن تسعد بلهجته وكلامه المعوج !!

نظرت إلى وجهه عندما انتهيا من الاستحمام ، كان وجهه محمراً من الشمس والبحر .. أخذ يأكل بشهية .. أما هى فشعرت كأنها تأكل لأول مرة .. كانت تشعر بمذاق الأكل ، مذاق البحر ، ومذاق الحياة

.. تفتحت مسامها للحياة وشعرت بانطلاقة غريبة .. أحبت صحبة هذا الولد الشقى الذكى .. وتعجبت كيف تلجمه جدته وتحكم سطوتها عليه .. وتمنعه من اللهو البرىء ؟!

فى سباق ممتع .. أخذا يعدوان ومعها «توتو» ، نباحه يملأ الشاطئ .. مياه البحر تبلل قدميهما ، وكريم يصرخ فى مرح : «أنا أثرع منك» فتقفز أنفاسها وهى تقول له : «لا .. لا .. أنا أسرع» .. تعجبت من الطفولة الكامنة بداخلها .. تعجبت من الأسوار التى أحاطت نفسها بها .. كان بحق يوماً من أسعد أيام عمرها .

ما أجمل النوم بعد هذا التعب .. نامت بجوار كريم الذى استغرق سريعاً فى النوم .. ثم ما لبث أن لف ذراعه الصغيرة حول رقبتها فى عناق حميم وكأنه يعلن عن حرمانه من الدفء وحرمانها هى الأخرى !!

حضرت الجدة وأخذت تشكر منى جزيل الشكر على تحملها كريم .. هذا الطفل الشقى .. المتعب .. بينما منى تستمع إلى كلامها وتودّ أن تطلب منها لو تتركه يمضى معها مزيداً من الوقتِ .. ظلت تنظر إليهما وهما ينصرفان ونظرات الصبى معلقة بها ، بينما كانت تشعر بحنين جارف نحوه .

جلست .. وصوت البحر يملأ أذنيها .. وهواؤه يعبق رئتيها .. وصورة كريم تملأ عينيها .. فكتبت .. بعد طول انتظار .. قصتها .. هى وهو !!

الحب فى الزنزانة

حبى دائماً حبيس نفسى ولقد كنت سجيناً لها . حاولت مراراً أن أتحرك من قيودها ، من قبضتها الحديدية التى تجثم على صدرى . منذ صغرى كنت أعرف أن الرجل الذى تقاسمه أمى الفراش ليس أبى بل زوجها . وزوج أمى أقول له يا عمى . ولقد حاولتْ أمى كثيراً أن تجعلنى أنادى زوجها «بابا» ولكنى لم أستطع كنت أتحرق غيظاً وأسرع إلى النوم بجوارها ، ينتهرنى زوجها ويطلب منى مغادرة الغرفة . أشتاق لأمى رغم أنها كانت تعيش معنا ، دائماً مشغولة بزينتها وجمالها .. وأزواجها .

عشت دائماً مع أزواج أمى التى كانت تتزوج الواحد تلو الآخر . تجيد العثور على هؤلاء الأزواج القصيرى العمر . فما إن يسكن بيتنا قادم جديد أعواماً قليلة ، حتى ينقضى عمره سريعاً .. يبدأ بعدها صراخ أمى وعويلها .. يخيم على بيتنا حزن مؤقت ، ثم ما تلبث أن تخلع السواد وتنتبه لزينتها وجمالها ، ولا يمضى سوى فترة قصيرة حتى يتهلل الوجه وتنفرج الأسارير وتعلق الزينات ، ويأتى الزائر الجديد ، ويستقر فى بيته ، ويأنس بسكانه ، ويسعد بزوجته الصبوح. ولَكَم كرهت قدرتها الفائقة على اجتذاب هؤلاء الرجال للزواج منها ، ورغم تبريرها باحتياجها لمن ينفق علينا ، إلا أنى كنت أفضل أحياناً أن نموت جوعاً على أن يشاركنى الكثيرون فى أمى .. كرهت عجزى أن أجعلها لى وحدى .

مشتهاة جميلة ، تعشق الحياة ، تكره النكد ، تُشفق على نفسها

وجمـالهـا من الهم والغم . أنجبت من أزواجهـا ثلاث فتيـات غيـر شقيقات لى . عندما تسير فى الشارع تقف الدنيا ولا تقعد لخطواتها الرشيقة وقدّها الساحر ، ويتعمدالرجال شيئاً واحداً .. أن ينظروا إلى الخلف وليس إلى الأمام . كم أحرقتنى نظراتهم ، كم دمرتنى كلماتهم وتعليقاتهم ، أما الذى كان يفتك بى فهو الدلال الذى كانت تتبختر به وكأنها تعجب بما يقولونه ، بل وتساهم فيه .. مشاعر متضاربة كنت أحملها لها . كنت أحبها ، وفى الوقت ذاته أكرهها !! أحب جمالها ، أعشق بشـرتها اللامعة وملمسـها الحريرى ، أتمناها أن تكون لنا وحدنا ، أن تستيقظ فى الصباح ، وتعدّ لنا طعام الإفطار ، وتصحبنا دعواتها لنا فى ذهابنا إلى المدرسة . نعود فنجدها قد أعدت لنا طعام الغداء . تراقب دروسنا . كان أقصى ما أتمناه أن أجد باب بيتنا مغلقاً ، ولكن كـان يحـدث العكس دائمـاً ؛ فـهـو دائمـاً مـفـتـوح للزيارات والحكايات يمتلئ دائماً بالنسوة ، والحكايات ، وصينية القهوة ، وأمى بطبيعتها الودود المرحة ترحب بكل قادم ، فلا عجب أن تركت أخواتى الدراسة وكان همهن الأول هو زينتهن .

أتعجب من سعادتى عندما ينتهى أجل أحد أزواجها ، وأتمنى أن تكفّ أمى عن لعبة الزواج ، ورغم أن أزواج أمى جميعاً كانوا يعاملوننى معاملة حسنة ، إلا أنى كنت أكرههم وأشعر أنهم يقاسموننى حبى لها ،وأنهم غزاة يغتصبون حريتى .. راحتى .. يغتصبون أمى !!!

وأذكر من فرط حبى لأمى ، بل وافتقادى لها ـ رغم أنها تعيش معنا

فى بيت واحد - أنى اختبأت داخل ردائها الفضفاض ، وأمسكت بساقيها كى أحتمى بهما وكأننى أريد أن ألتصق بها وأعود إلى أحشائها ، وكانت تضحك وتدور حول نفسها وتقول لى : عيب يا ولد .. إنت خلاص كبرت !! .

كبرتُ وآثرتُ أن أبتعد عن بيتى الذى شعرت فيه بالغربة والعزلة ، فضلت حياة الصحراء ، والحياة الجافة القاسية ، كنت أبحث لنفسى عن قيمة ووجود . شعرت أن اللون الأصفر والأوامر والنواهى والحياة المقصورة على الرجال ستمدنى بالصلابة وقوة الاحتمال ، ستعيننى دائماً على الصبر ، ورغم خشونة الحياة إلا أننى كنت بطبيعتى أميل إلى الهدوء والصمت ، أهوى الرسم وأعشق البحر ، شخصيتى الرومانسية لا تتفق مع صوت القنابل والمدافع . عواطف كثيرة أخفيتها وحبستها داخل زنزانة صدرى ومازلت أحتفظ بالمفتاح !! .

عندما وقعت عيناى على عفت انخلع قلبى من بين صدرى ، أدركت فى لحظة مصيرية أن هذه الفتاة هى الحب الذى أبحث عنه ، أمنى نفسى بالحب الحقيقى وفى أحيانٍ أخرى أحرّمه عليها .

جعلتنى عفت أحب الإجازات وأشتاق إليها بعد ما كانت عبئاً ثقيلاً علىّ ، كنتُ من قبل أشارك زملائى ليالى اللهو والعبث الرخيص لأثبت لهم - قبل أن أبرهن لنفسى - أنى رجل مثلهم ، يستطيع أن يقضى ليالى ماجنة !! .. أحببت عفت وأحببت معها الحياة ، وتصالحت مع الدنيا وتصالحت مع نفسى ، أشتاق إلى إجازتى الشهرية لألتقى بها وأتحدث

إليـهـا وأسـتـمـع منهـا ، أعشق أن أقـتـرب مـنهـا ، أو تلمس يدى يدها ، أحلم بها ، أشتاق إليها ، أشتهيها ، كم تمنيت أن ألتهمهـا ، أن أمتزج بها ، أن يختلط عرقى بعرقـهـا ويتّحد مـصـيـرى بمصـيـرها . ولمَ لا مادامت هى الحب الحقيقى الذى وجدته واشتقت إليه ومنّيت النفْس بالفوز به . سأتزوجها .. ما الذى يمنعنى ؟؟ ما الذى يعوقنى ؟؟ إنهـا تبادلنى حباً بحب وعشقاً بعشق .. بل إننى فى أوقات كثيرة كان علىّ أن أكبح جماح رغباتها الساخنة !!

سأفاتحها فى قرارى وحتماً ستسعد به ! « الله . ضابط أدّ الدنيا » .. وستصبح حلالى .. وسوف أهنأ بهـا وتسعد بى . الله .. كم هو جميل هذا الحب !! .. أخيراً سوف يسعد القلب ويهدأ الجسد .. وأنال حظى من الحياة ، أرتاح بين كفيهـا وأفتح لها زنزانتى ، أحكى لها أوجاعى ، ألقى بهمومى على ذراعيها .. أعدها بالحب بالوفاء .. بالإخلاص .. وبليالى حب طوية دافئة تجمعنى معها بلا انقطاع .

لا يمكن أن أنسى هذا اليوم الذى ظل محفوراً بإزميل حاد فى ذاكرتى ، يوم أخبرتها برغبتى فى الزواج .. تصورتُ أن الفرحة سترقص على وجهها .. وأنها ستطوقنى بذراعيها وتقول إنى تأخرت كثيراً فى هذا الطلب الذى طالما انتظرته بشغف .. لكن للسعادة ناس آخرين .. ارتبكتْ ورأيتُ وجوماً وصمتاً .. ولكن الذى أثار دهشتى .. عندما قالت فى عذوبة وحزن «أصلك فاجئتنى» !!

فقلت معاتباً : «بس يظهر إنها مفاجأة مش سعيدة» .

ـ لا .. لا المفروض إنى أكون أسعد إنسانة فى الدنيا .

ـ المفروض ؟!!

طلبتْ الانصراف متعللة ببعض الصداع ، وتركتنى أتميز غيظاً .. أشتعل حيرة .. وأموت خوفاً !!

بعد عدة أيام التقيت بها وطلبت منها تفسيراً واحداً لتصرفها العجيب .. تسمر الكلام على طرف شفتيها حاولتْ أن تمنع نفسها من البكاء . قالت فى استجداء : « فى حاجة لازم تعرفها قبل ما نتجوز » ، ثم أضافت : «كنت متزوجة زواجاً عرفياً قبل أن أعرفك»

ومدت يدها بورقة لكى أقرأها ، نظرة جامدة تصلبت فوق وجهى ، وتجمد الكلام فوق شفتى ، وتحجر تفكيرى سلبتنى المفاجأة الوعى ، لم أسمع البقية الباقية من كلامها . لا أذكر هل تكلمتُ ؟ هل صمتّ ؟ وكأن الزمن قد توقف عندئذ .

كنت أحلم بزوجة بكر ، زوجة ملك خالص لى ، امرأة أكون مكتشفها ، يكون شراعى أول من يهبط على أرضها ، ولكن كل شىء تلاشى داخلى .

ابتعدتُ عن عفت .. تباعدت الخطى بيننا .. استأنست بالوحدة .. وتزاملت من جديد مع الصحراء والرمال .

تأملت .. احترقتُ .. اكتويت بنيران الوحدة والليل الطويل !! ولكن حتماً لم أشأ أن أعاود مد جسر الحب القديم .

منذ أيام كنت أنا وأختى نقلب فى صور بعض الفتيات لتختار لى .. دون سابق معرفة .. عروس المستقبل !!!

سقوط نجمة

أنحنت سامية سامى تحية لجمهورها وعيناها تلمعان بالدموع ، بينما الجماهير تضج لها بالتصفيق على أدائها الرائع فى مسرحيتها . كان قلبها يرقص فرحاً بين ضلوعها ، وظلت تحنى رأسها لجمهورها فى تواضع جم ، وكلما رفعت رأسها تضج القاعدة الفسيحة بالتصفيق والصفير فتنحنى ثانية وثالثة . ثم رفعت رأسها وأخذت تنظر إلى الجماهير الغفيرة ، ولوحت بيدها ، وأخذت تلقى بالقبلات ، فى حين تتساقط عليها الورود وهى لا تملك نفسها من السعادة والانفعال . وأخيراً أسدل الستار ، وهمت سامية بمغادرة المسرح وهى تختال فى فستان أخضر بلون الزرع ، هفهاف ، يظهر جسدها اللدن الصغير فى أبهى صورة ، ويعكس ضياءً جميلاً على عينيها الخضراوين ، فسبحان مَن صورّ وأبدع هذا الجمال !!! ليست جميلة فحسب ، بل تملك روح الفنانة الحساسة المرهفة . كانت علامات التأثير مازالت بادية عليها من الإقبال الجماهيرى الذى لاقته اليوم وكأنها المرة الأولى لها . وهذا هو عهدها بجمهورها الحبيب كلما التقت به .. تزداد حباً لفنها ولجمهورها وتشتد تأثيراً كأنها تقف للمرة الأولى على المسرح .

ازدحمت الطرقات المؤدية إلى حجرة سامية بالمقربين والمعجبين، وتقدم منها مهنئاً حمدى بيه الشربينى بكرشة الكبير وسيجاره فى فمه ، يرافقه صديقه وقال :

«ألف مبروك يا ست الكل .. ياريت يكون لنا نصيب فى هذا النجاح» .

فنظرت إليه نظرة ذات مغزى وهى تمسك بطرف فستانها بينما يحيط

بها الناس وقالت فى أدب :

ـ آسفة .. أعتقد إننا اتكلمنا فى الموضوع ده قبل كده : وانصرف حمدى بيه دون أن يعلق بكلمة وقد امتعض من كلامها ، فبادر صديقه مستفسراً ، فرد حمدى بغيظ مكتوم :

ـ حد يصدق إن الجمال ده يعمل مسرحية ولا اتنين فى السنة ؟! طلبت منها تعمل كام فيلم من الأفلام إياها .. هى تكسب واحنا نكسب الدهب كله ، لكن أعمل إيه .. كل شوية تقول لى كلام فاضى .. جمهورى .. فنى .. والكلام إياه .

فأومأ صديقه موافقاً ومؤيداً وقال له :

ـ يا عم عالم غاوية فقر .. مش بيقولوا ناقصات عقل و ..... !

الآن حققت كل أحلامى ، ماذا أطمع ؟؟ إن شعوراً بالسعادة يملؤنى اليوم أكثر من ذى قبل ، فعلاقتى بجمهورى تزداد يوماً بعد يوم، وتزداد سعادتى أكثر كلما شعرت أن حب ياسر حب حقيقى وصادق ، ليس مثل بقية المعجبين . إن قلبى من ذهب ، ولن أمنحه إلا لمن يستحقه .

كانت الأفكار تجرى متلاحقة فى رأس سامية وهى تتأمل باقة الورد الجميلة التى تزين حجرتها ويملأ عبقها المكان ، كانت تمسك ببطاقة التهنئة المعلقة فى الورد ، وعليها كلمات رقيقة من ياسر ، ثم سمعت نقراً على الباب وبعدها دخل الدكتور ياسر ، بهيئته الوسيمة وأناقته المعهودة ، تبرق من عينيه نار الشباب وفتوته امسك بيد سامية

الصغيرة فى حنان وقبّلها وقال لها فى صوت يتهدج رغبة وعشقاً .

- مبروك يا سامية ، كنت هايله دائماً .

- حقيقى عجبتك .

- من شدة إعجابى ، عاوز نعلن خطوبتنا النهاردة ، خلاص مافيش أعذار .

ترددت سامية وأجابت فى استحياء :

- إنت متأكد من شعورك ناحيتى ؟

- سامية .. مش ممكن .. لسه عندك شك فى حبى ؟!

- أصل ازاى الفن ممكن يتجوز الطب ؟

- الطب فن يا سمسم .. والله بحبك .

- خايفة الجواز يعطلنى عن فنى ، اللى هو كل حياتى .

- أظن احنا اتكلمنا فى الموضوع ده ، حاتنجحى أكثر ، ودلوقتى تشوفى .

ثم قال بصوت عال وفى مرح :

- اتجوزينى .. اتجوزينى !!

ألقت سامية بنفسها على المقعد الوثير وهى فى حيرة من أمرها ، آلمها ألا تعطى لياسر إجابة نهائية ، أو تسبب له أى ألم ولكن ماذا تفعل ؟؟ ليس من السهل عليها أن تتخذ قراراً مصيرياً هكذا . إنها تحب «ياسر» ولكنها تحب فنها وتعشق جمهورها . تخشى أن يبدلها الزواج . سنوات طوال وهى تعرف ياسر ، ورغم أنه طبيب إلا أنه اعتاد

أن يحضر معظم بروفات أعمالها .

ظلت تتساءل : «ترى هل حبه حقيقى أم مجرد إعجاب عابر» ؟؟ وشعرت أنها لا تفهمه أحياناً وأنه يحيرها فى كثير من الأمور ، ولكنها تحبه وتذوب فيه عشقاً بعكس ما تظهر له .

وبعد تفكير طويل وتردد ، رجحت كفة الحب ، فاستسلمت لندائه ، وارتمت فى أحضانه ، وارتوت منه ، فزادها الحب بريقاً على بريق وتألقاً على تألق ، وسارت سفينة الحب فى بحر السعادة بهمة ونشاط .

ثم ما لبث أن خمد الحب وانطفأت جذوته ، شأنه شأن كثير من الأمور ، فانشغل ياسر بعمله الذى أخذه بعيداً كان فى قرارة نفسه يشعر بالقوة والزهو ؛ فقد استطاع بذكائه ووسامته أن يستميل امرأة صعبة المراس مثل سامية ، بل ويتزوجها ويجعلها طوع بنانه . وكان كعادته يفتر حماسه للشىء مادام قد حصل عليه ، ويلهبه التحدى حتى يصل إلى مراده . كانت نرجسيته تدفعه إلى البحث عن كل ما هو مثير وجديد . بدأ بساط الرغبة ينسحب من تحت قدميه بعد أن نال شهرة ونجاحاً بزواجه من سامية سامى . أحست سامية بإحساس المرأة قبل شعور الفنانة أن الملل يزحف على حياتها بلا هوادة ، فقالت لنفسها : «أرجو أن تكون فترة وتمضى ، شأننا فى ذلك شأن كل الأزواج» . ولكن حالتها زادت سوءاً حين وقعت على الأرض فى أحد الأدوار وأمرها الطبيب بملازمة الفراش .

شعرت بوحدة رهيبة ، كانت ترى نفسها طريحة الفراش ، وقدميها فى الجبس ، لا تقوى على الحركة ، بينما يمتلئ صدرها بالانفعالات .

كان ياسر فى الإسكندرية لحضور مؤتمر طبى لعدة أيام ، واتتها فكرة جهنمية لتبدد بها هذا الملل ، وفى دقائق أمرت سائقها بأن يأخذها إلى عروس البحر ، يا لها من مفاجأة ، وظلت طوال الطريق تفكر كيف ستفاجئه !! وماذا ستقول له ؟!! إنها تعلم أنه بعيد عنها بعض الشيء ، لكنها سوف تعوضه كل ما فات ، لماذا طالت المسافة هكذا ؟ وأخذت تحث السائق على الإسراع ، بينما يتراقص قلبها بين ضلوعها .

عندما وصلت إلى شاليه زوجها الطبيب .. الفسيح المطل على البحر ، تحسست خطاها ببطء .. تسير الهوينى وهى تستند على عكازين ، جلست قليلاً وتصورت أنه لم يأت بعد ، وأعدت نفسها لمفاجأته ، ولكنه كان قد أعد لها مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، حين سمعت همهمة وهمساً ، فدلفت إلى الداخل ، ويا لهول ما رأت ، ويا لهول ما سمعت ، زوجها الحبيب .. الطبيب .. الفنان .. مع شاب صغير .. فى بيتها الذى شهد مولد حبها ، الزاخر بأحلى الذكريات .. مادت بها الأرض وزلزلتها وهدّت كيانها .. سقطت !!!

الجانب الآخر من النهر

أذكر هذا اليوم جيداً ولا يمكن أن أنساه . اليوم الأول التقيت فيه بروز رضوان والتقطت ذاكرتي اسمها بينما حفرت في مخيلتي صفحة وجهها . دخلت متأخرة قليلاً عن اجتماع التعارف القصير الذى عقد لكي ألتقى بفريق العمل الذى سيعمل معى ، وتحت إدارتى ، في مهمتى الدبلوماسية الجديدة . وقدمت روز نفسها وعملها الإدارى البسيط الذى تقوم به . ولكن لا أدرى لماذا هى بالذات دون الباقين التى تذكرت اسمها وطبيعة عملها ؟! كان عملى يفرض علىّ الكثير من السفر والترحال ولقاء الكثير من البشر والنساء . نساء جميلات أنيقات ، التقيت بهن طوال مشوار حياتى ، واعتبرت ذلك من دواعى العمل وضمن ظروفه . لكن لماذا يضع القدر أمامنا أشخاصاً بالذات نقف أمامهم حيارى ولا نعرف سر ارتباطنا بهم ؟! روز كانت واحدة منهم .

مضى اليوم الأول فى مهمتى فى هذا البلد الإفريقى العريق .. أخذنى العمل وهمومه ، ولكنى أحياناً وبدون أن أدرى أفتش عنها ، فلا أجدها !! فأين ذهبت ؟ إلى أن عرفتُ أنها تعمل فى إدارة بعيدة عن القسم الذى أشغله وإن كانت تابعة له أيضاً . كنت أريدها أكثر إقتراباً . فقمت بطلب نقلها إلى مكتبى مباشرة ، وعرفت عنها دقتها واهتمامها بعملها رغم صغر مسئولياته .

وأصبحتُ أدخل مكتبى صباحاً فأجدها بوجهها البشوش

وتقاطيعها السمراء الدقيقة ، كانت ذكية فى تواضع رقيقة فى دعة ، جميلة فى بساطة . ولاحظت مع الوقت أنها لا تعيرنى اهتماماً ، واستفزنى هذا الشعور وأثار كبريائى ، فقد اعتدتُ بطريقة أو بأخرى أن أرى النساء حولى ، ربما القليل منهن الذى كان يثير فضولى ، والأقل الذى يثير شهيتى .. لكن ما لهذه المرأة لا تعبأ إلا بالعمل ؟! حتى إننى كنت أتوقع منها الشكر على أنى نقلتها مساعدة مباشرة لى وتركت عملها الإدارى فى الملفات ، ولكنها تلقت كل هذا بهدوء وكأنه أمر مقبول .

وعلى كثرة أشغالى وتعدد مسئولياتى ووجودى أغلب الوقت خارج المكتب ، كان لا يفوتنى أن أطلبها فى العمل ، وأبحث عن سبب لذلك ، دائماً أجدها لا تفارق مكتبها ، تلبى طلباتى دون كلل أو تبرم مهما كانت صغيرة .

وفجأة تغيبت عن العمل عدة أيام بسبب مرضها . يا إلهى .. كم ضايقنى هذا الشعور .. مريضة وبعيدة عنى !! كنت أسأل نفسى : ما هو شعورها نحوى ؟؟ ولماذا أشعر بكل هذا نحوها وكأنى مراهق صغير . رغم أنها لم تفعل أى شىء يذكر لتثير اهتمامى أو تجذب انتباهى ، وكم اغتاظت من مشاعرى تجاهها أحياناً ؛ فقد كنت أعيش حياتى مع زوجتى منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، تزوجنا صغيرين ، وكبرنا معاً ، وتغيرنا وتبدلنا معاً ، ولكن هذا لم يحل دون استمرار زواجنا .

زواج كتب عليه أن يستمر حتى لا نعلن للآخرين فشل حبنا ونهاية عواطفنا .. مجرد دبلوماسية كما يقولون . كان هناك سرداب مظلم بيننا قررنا نحن الاثنين ألاّ ندخله ، بل ونسدّ فوهته حتى لا يُفتح علينا . رافقتنى زوجتى فى كل أسفارى وقامت بكل واجباتها معى إلا واجباً واحداً تخلت عنه بعد فترة من زواجنا الميمون ، كان علىّ أن أقبل .. أرضخ وأصمت . حياتى كانت كالطعام المسلوق صحى ولكن بلا طعم .

وبعد فترة طويلة عادت روز وكانت ذابلة ، عليلة إلا أن ضعفها هذا كان يثيرنى ، تمنيت لو آخذها بين ذراعى وأخفف عنها علتها أو حتى أقاسمها هذا المرض ، وقفت أمامى تتحدث فى إعياء وضعف ، ولم أملك إلا أن أقول لها إنى أحبها ، وأحب بلدها ، وأحب جوها ونسيمها ، وصناعة وطنها وزرعه ، وسلامه الجمهورى وأغانيه التى لا أفهمها ، وكل ما يتعلق بها .. وقفت مبهوتة .. ذاهلة .. وقالت فى صوت خافت : «وأنا كذلك» . ولا أذكر ماذا حدث أو بما شعرت ؟ ولكنى متأكد أننى شعرت أنى ولدتُ من جديد . أحبها .. نعم أحبها .. والأهم أنها تبادلنى نفس الحب . ولكنها فقط لم تعرف كيف تعلن ذلك أو تعبر عنه . وعرفتُ أنها مرضتْ من كثرة محاولاتها السيطرة على عواطفها ومداراة مشاعرها . كم هو جميل أن تحب . وكم هو أجمل أن تجد من يحبك ويعطف عليك ، بل يمرض لأجلك . أية حياة

بلا هذا الشعور الخلاب ؟!! وأية قيمة لكفاح ما لم تسترح فى أحضان امرأة تحبها وتهواك ؟! اليوم فقط حمدت الله أنها مرضتْ . ليتها مرضت من زمن بعيد ، إذن لوفرت عليّ كل هذه المعاناة وكل هذا الانتظار !!

تزوجت روز رضوان دون علم أحد ، وشعرت وأنا معها بأنى فارس فى العشرين بينما كنت أخطو خطواتى نحو الستين . عرفتُ العشق الذى كنت أقرأ عنه ولم أؤمن به قطّ اليوم فقط بل وآمنت به . كنت أتصور أنى بخبرتى الطويلة فى الحياة أعرف الكثير إلا أننى كنت معها كطفل صغير يتعلم مبادئها . لم تكن روز امرأة جميلة بل كانت روحاً آسرة ، علمتنى الحب والعطاء الذى نسيته من كثرة عملى !! وعلى شدة اختلافنا ، كان يربط بيننا خيط جميل من التفاهم اللذيذ والعشق الفريد والود الأثير . وكان الوقت القليل الذى أعطيه لهايؤلمنى ، بينما لم تتبرم يوماً ولم تحتجّ أبداً . أحببتها جسداً وروحاً ونغماً عذباً فى حياتى الباردة .

وتصورت يوماً أن الغوص فى النهر ليس مثل السباحة فى البحر . فالنهر الهادئ يسير دائماً فى مجراه المقدر له ، بينما أمواج البحر قد تعصف بحياتك ، وكنت دائماً أهوى أن أجلس على النهر وأتصور حياتى مثله ، وكم تساءلت : هل الأفضل أن أجلس وأنتظر وأترقب ، أم أسبح وأجرب وأغامر ؟ ولقد اخترت الحل الثانى ، فآثرت المغامرة

على السلامة، وتصورتها مغامرة محمودة ، ولكن النهر غيرّ مجراه وتحول من نهر هادئ إلى خضم ثائر . فقد علمتْ زوجتى بأمر زواجى وأحالت حياتى إلى جحيم لا يطاق . فتعثرت فى عملى ، وفقدتُ قدرتى على التركيز ، وكان ذلك أمراً يسيراً مقارنة بما لحق بروز- امرأتى الجميلة الوديعة..من آلام وتجريح وتهديد . وقررتُ أن أصمد وأن أنحنى للعاصفة إلى أن تمر . لكن النهر الهادئ كان يخفى تحت مياهه العذبة موجاً كاسحاً . كنت أستطيع أن أتحمل نار زوجتى ولكنى لم أحتمل دموع ابنتى الساخنة وهى تتوسل إلىّ أن أضع نهاية لزواجى الجديد . نعم لم أحتمل نظرات الحزن والخوف من صغيرتى .. ولبيت لها طلبها .

ويوم أقلعت طائرتى تاركة هذا البلد الإفريقى الجميل الذى حلمت يوماً أن أعيش فيه ، والذى أحببته أكثر عندما التقيت بحبيبتى روز ، كان قلبى ينخلع من صدرى ، فقد تركته قبل أن أستقل طائرتى ، وظلت نظرات روز الحزينة ، التائهة ، وأيضاً الغاضبة ، تقفز فى مخيلتى ، بينما كلماتها الأخيرة تعلو على أزيز الطائرة : يوماً ما سيتحطم قلبك ، وتعرف معنى العذاب !!

ولد وولدت معه

امتلأ المكان بالحاضرين ، وقفت الدكتورة مديحة مجاهد ـ أستاذ علم الاجتماع ، وكاتبة المقال الأسبوعي ـ بهيئتها الرزينة وملبسها الأنيق ، تلقى محاضرتها عن العلاقات الأسرية ودور المرأة في البيت والمجتمع ، دوت القاعة بالتصفيق بمجرد انتهائها ، واصطف حولها الكثيرون ليسألوها أو يستفسروا منها . حاولتْ بعدها جاهدة أن تجد طريقها للخروج ، لكن مقدمة البرامج الحسناء سارعت بعقد لقاء سريع معها على الهواء . وأخيراً تمكنت من الانفلات من هذا الضجيج .

لم يكن كل هذا جديداً عليها . لقد اعتادت عليه وكأنه جزء من حياتها . حياتها التي تمتلئ بالزيف والمظاهر الخادعة مثل ابتسامتها الباهتة التي ترسمها دائماً فوق شفتيها لتكمل بها الصورة . هذه الابتسامة التي تتذكر أن تضعها قبل أن تغادر منزلها ، مثل القرط الذى تتحلى به في أذنيها ، أو الدبوس الأنيق المعلق في طرف سترتها .

رغم قسوة الجو وبرودته ، فضلت أن تهيم بسيارتها في شوارع القاهرة الخالية من المارة على ألا تعود إلى بيتها . الكل يشعر بالدفء والأمان في بيته إلا هي ، تشعر بالخوف ، الرعب . ماذا بك يا أستاذ علم الاجتماع .. أليس لديك وصفة سحرية لعلاج مشكلتك الأزلية ، أتجدين سعادة في هذا اليم المتلاطم ... أم أن بيتك من زجاج مثل صاحبته ؟!! .

رغم أنها تستطيع أن تذهب إلى والديها أو تجد مكاناً آخر .. إلا أنها لا تستطيع أن تترك بيتها .. البيت الذى شهد ميلاد حبها وفجر زواجها من حلم حياتها .. الدكتور طارق .. أستاذها ومعلمها وصديقها .. ثم زوجها وحبيبها وطفلها .. هو كل حياتها .. وبدونه لا قيمة للحياة ولا معنى .. ولكن أين هو .. أين طارق القلب .. أين هو .. أصبح شبه إنسان .. لقد اختلست النظر إليه بالأمس وهو يبدل ملابسه فرأته أشبه ببقايا رجل نحيل .. ضئيل .. أين ذهب شبابه ؟!! وكيف تهاوت رجولته على صخرة الشراب والكيف ؟! . وكيف تحول من الرجل الطيب الرقيق .. إلى شخص عصبى .. حاد المزاج .. لاذع اللسان ؟! أين حبه وعطفه وحدبه عليها ؟!! كان يلومها عندما تتأخر قليلاً عن موعد حضورها للبيت .. فأصبح الآن لا يشعر بوجودها .. وكانت أجمل لحظاتها عندما تجلس إليه وتسمع منه .. أما الآن .. فأقصى أمنياتها أن تجده نائماً .. وألا يثور المارد الساكن فيه .. فيكسر ويدمر ويسحق كل شىء أمامه .

كانت وجنتاها تشتعلان ناراً- رغم ضراوة الطقس - وهى تتذكر ما حدث بالأمس عندما احتدت معه وحاولت أن تثنيه عن هذا المزاج اللعين الذى سرقه من كتبه وعلمه .. ومنها .. إلا أنه دفعها بعيداً .. فطوحها فى أحد أركان الغرفة .. فوقعت .. وتكومت أمامه أشبه بفأر مبلول .. بينما وقف هو متبلداً .. بارداً .. ثم اقترب منها وضمها بين

ذراعيه .. وأخذ يبكى .. نعم كان يبكى .. أكثر منها !!

منذ ليلة أمس وهى لم تنم .. منذ الأمس لم يغمض لها جفن .. فقد عقد النوم معها اتفاقاً ألا يزورها .. وكانت تشعر بأوجاع شديدة فى ظهرها مما حدث .. إلا أن أوجاع قلبها كانت لا حصر لها .

فى قرارة نفسها ..كانت تشعر بذنب رهيب وجرم يفوق احتمالها .. تشعر أنها مسئولة عما حدث .. بانشغالها عنه .. بعملها .. بتلاميذها .. بقلمها .. انشغالها بنفسها ونرجسيتها .. كان شعورها بالذنب أقوى من أى شعور آخر .. وحاولت أن تكون حيادية .. حاولت أن ترحم نفسها وتعتبره مسئولاً هو الآخر .. وأنه ليس طفلاً .. وله عالمه .. وكتبه وعلمه .. وعمله .. وأنها فقط ضلع من أضلاعه .. وجزء من كيانه .. هو الذى هوى .. هو الذى سقط .. واستسلم لغواية .. وضعف أمام سيجارة .. وليلة وتمضى .. هو .. هو .. !! وبدأ صوتها يعلو وهى فى سيارتها .. ثم توقفت .. وأخذت تضرب بعصبية على عجلة القيادة .. وهى تصرخ : هو المسئول عن سقوطنا معاً إلى هذه البركة العفنة . ووضعت رأسها فى استسلام بين كفيها وهى تردد : ليس المهم من المسئول .. ! المهم أن نخرج من هذا المستنقع .. يجب أن تجدى حلاً .. يا دكتورة !!!

دخلت البيت .. فتشت عنه .. كانت تتوقع أن تجده نائماً على الأريكة كعادتها .. كطفل يخشى أن ينام بمفرده إلى أن تعود أمه ..

بدون غطاء .. فتقوم هي بإيقاظه وتطلب منه أن يتجه إلى غرفته .. فينهرها .. ويدفعها .. وأحياناً يسبّها .. ولكنها تصرّ على أن ينام فى فراشة .. يتكاسل .. ويتباطأ .. ويكاد صبرها ينفد .. إلى أن يستسلم . بعدها .. تستطيع فقط أن تغلق عينيها .

ظلت تبحث عنه فى أرجاء البيت .. فلم تجده .. آه .. إنها ليلة أخرى مع القلق والانتظار .. حينما يخرج ويغيب ..وتجلس .. وتبرد .. وتنتظر .. وتبحث عنه .. بلا أمل .. لا هى قادرة على أن تبتعد عنه .. ولا هى قادرة أن تنساه .. ولا حتى أن تغفو وتقول لنفسها : إنه كبير ويعرف ماذا يفعل !! فرض القلق والانتظار نفسيهما عليها .. واقتحما حياتها وسكينتها رغماً عنها .. يا لهما من صديقى سوء !

مع خيوط النهار الأولى بدأت تشعر بحضوره .. كانت لا تزال ممدة على الأريكة فى انتظاره .. كانت حالته مزرية .. يترنح .. هالها شحوب وجهه .. دخل إلى غرفة دون حتى أن يلحظ وجودها .. يتخبط .. أسرعت تراقبه .. وقلبها يقفز بين ضلوعها خوفاً من أن تنالها نوبة من نوبات غضبه الكاسرة .. تمنت لو تملك بلورة سحرية لتعرف أين يذهب .. وماذا يفعل .. ودت لو تصفعه .. تحتضنه .. تعنفه .. تقبّله .. ولكنها ظلت واقفة كالتمثال ترقبه .. ثم استجمعت قواها واقتربت منه لتتحدث إليه .. ولكنها .. تسمرت مكانها .. عندما وجدته بلل سرواله .. ورائحته تزكم أنفها .. وقد ارتمى على الفراش دون وعى .

ومن ضعفها .. ومن حزنها .. ومن ضياعها .. استمدت قوة جديدة .. فعقدت العزم على أن تنجو به .. وتطهره من دنسه .. وفى لحظات مرت عليها كدهر ، قررت أن تكون القاضى والسجان فى آن واحد .. وأمسكت بسماعة التليفون .

دخلوا عليه ليصطحبوه إلى حيث الخلاص .. صرخ وقاوم .. وفى دقائق دست فى ذراعه سرنجه غير السرنجة التى اعتاد عليها ، وخيمت نظرة ضعف على وجهه وهو ينظر إليها .. بينما كانت روحها تسحب منها وهى ترى بطلها فقد كل أسلحته ،.. مهزوماً.. أعزل .. أصبح كخرقة بالية .. حُمِل ووضع داخل سيارة فاقد الوعى إلى حيث النجاة .

يلقبونها بالأستاذة .. ينادونها بالعالمة ، ويطلقون عليها الأديبة والمفكرة .. كم من ألقاب يسعى إلها الناس ويتمنون لو يذيل اسمهم بها .. أما هى فأحلى لقب لديها .. وأعز شرف نالته .. وأعظم مجد حصلت عليه .. عندما يلقبونها بحرم الدكتور طارق .. نعم إن اسمها له طعم خاص ومذاق مختلف عندما يقترن باسمه .. هذا الاسم المحبب إليها . اليوم .. وبعد عدة شهور .. عاد إلى الحياة بعد رحلة طويلة مع العذاب والانسحاب من ماضٍ مرير إلى واقع جليل .. اليوم هو يوم مولدة حينما عاد إليها بابتسامته الودودة وعطفة الأثير .. اليوم فقط .. تستطيع أن تنام ، وأن تستظل بظله ، وتحتمى بحبه .. اليوم .. وُلد وولدتْ معه !! .

خرج .. ولم يعد

زمجر .. علا صوته .. هدد وتوعد ، ثم ثار ثورته المعهودة .. وفتح الباب كعادته وخرج صافعا إياه صفعة مدوية هزت أرجاء المبنى الفاخر الذى نقطنه . هذا ما يفعله بالضبط فى كل مرة نتشاجر فيها أو نختلف .. ثم أريد أن أملى شروطى عليه .. وكعادتى أيضا .. لم أرد .. لم أتحرك من مكانى .. لم أتزحزح عن رأيى وتركته وثورته دون أدنى اهتمام .. بل قمت أبحث عن « مبرد الأظافر » لأقلم أظافرى الطويلة .. الجميلة .

كعادته خرج تاركا البيت تعبيرا عن احتجاجه وما الجديد فى ذلك ! ! .. يقدم على هذه الفعله أعواما طويلة .. ثم يعود .. معتذرا .. آسفا .. باديا ندمه ومضى أياما فى التفكير عن فعلته هذه أتعامل معه بهدوء وتؤده .. اسقيه الحب قليلا .. قليلا .. حتى لا يشبع .. ويمل .. ويهرب . يقف على باب جنتى مستأذنا .. طالبا العفو .. الصفح .. والحب الذى يشتاق إليه .. أعطيه كيفما يحلو لى .. ومتى يتأتى لى .. فلا عجب لثورته .. وخروجه .. سيعود حتما .. حتما سيعود .

قمت من على مقعدى الوثير .. وجلست على الأريكة أتصفح بعض الجرائد .. ثم استغرقت فى نوم عميق .. جميل كما لم انم من قبل . فى اليوم التالى استيقظت وتوجهت للعمل وأنا أرتدى أحلى حلة عندى .. اندمجت فى يوم عمل طويل دون أن أعير الأمر اهتماما . توقفت .. تعجبت .. فجرس التليفون لم يرن مرة واحدة كعادته ..

ليصلنى صوته مستأذنا .. معتذرا .. يستأذننى فى الحضور .. تجاوزت الأمر .. وانشغلت بالعمل .. ومضى اليوم كله وقد اختلست النظر إلى ساعتى عدة مرات .. دون أية إشارة منه .

فى ثقة تامة .. كنت أعرف أنى سأجدة فى البيت .. يبتكر تصرفا جديدا لآرضائى .. حتى لو كنت المخطئة .. يبرع فى انتقاء باقة ورد رائعة .. أو يعد لى طعاما شهيا أحبه ويقول لى هذا من عبدك المتيم يامدام .. وأحياناً يتخلى عن رومانسيته ويحضر لى هدية غالية لأضيفها إلى مجموعة الهدايا التى احتفظ بها دون أن أرتدى واحدة منها .. إمعانا فقط فى إرضائه .. ولكن بحدود ..

دلفت إلى البيت .. لم أجد اى علامة إلى عودته .. البيت هادئ ومرتب كما تركته .. عندما يعود أول شئ يفعله أن يفتح التلفاز .. ويملأ صوته البيت وعندما كنت أعنفه على ارتفاع الصوت .. وانه يصيبنى بالصداع .. كان يضحك .. ويزيد فى ارتفاعه .. ويقول لى فى دعابة .. « حبيبتى تجيب صداع لأكبر تلفزيون فى العالم» . ثم يذهب ويخفض الصوت .. وكنت أجده يضئ الغرف ثم يترك الضوء دون أن يغلقه .. أتشاجر معه على ذلك .. وانه لا يجيد فن التوفير .. واجده يلقى بملابسه فى كل مكان . وكأن يعيش معى مائة شخص .. وأقول له انه غير منظم .. وغير اقتصادى .. وانه ما كان له أن يتزوج .. والأعجب انه كان دائما يأخذ حدتى وعصبيتى بهدوء ودعابة ،

ويتهمني إنني إذا لم أجد شيئاً أتشاجر عليه .. فاني سوف اطلب شيئا أتشاجر بشأنه من المحل القريب من البيت .

وها أنذا أتشبع بالهدوء والنظام ، وأعفي نفسي من الضوضاء ، وهاهي الأضواء خافتة ، وكان البيت أشبه بقبر .. وليس هادئا ورومانسيا كما كنت ادعي إن هذا هو كل ما أريده .

حتما سيعود .. فهو ليس زوجي فقط .. بل طفلي المدلل الذي يمسك بذيل رداء أمه حينما تكون .. فكان يلازمني عندما ادخل إلى المطبخ .. أو إلى غرفة من غرف البيت .. يتحدث لي ويحكي عن يومه .. وأنا استمع نصف منصته .. وقلما أشركه في الكثير .. وإذا حكيت له عن شئ وقال لي رأيه .. قلما كنت آخذ به .. وربما أسفه من هذا الرأى .. واعتبره اقل مما أتوقع .. يغضب أحيانا .. ويحزن احيانا .. وتبدو على وجهه إمارات الألم ولكن إذا تواضعت واعتذرت له يشعر بالسعادة والامتنان وكأن شيئا لم يحدث .. حتما سيعود ..

وعندما يبدى اعجابة الشديد بجمالي وانوثتي .. كنت اعتبره شيئا عاديا معتادا .. لم يضف إلى شيئا .. فأنا اعرف ذلك عن نفسي .. ولا أذكر أني أثنيت على وسامته أو أناقته أو رجولته .. لا اذكر أني قلت له شيئا يشعره انه متميز ومختلف عن اى رجل آخر .. لا أذكر أني أشعرته انه زوجي .. وزوجي وحدى فقط !!

مضى وقت طويل ..وكبريائي يرفض أن يعترف أني اشتاق إلى

ضحكاته وإلى دعابته .. وطريقة تدليله .. اشتاق حتى إلى قائمة الاختلاف الطويلة بيننا .

بدا النوم يهجرنى وهو الشيء المقدس لدى .. صادقت المنبهات .. بدأت أنظر إلى الساعة كثيرا .. ولم أتصور أن أهمل فى عملى يوما وهو الأهم عندى . وعندما أعود للبيت .. لا أطيقه .. لا أتحمل أن اجلس وأتناول الطعام وحدى .. بينما كان يمطرنى بحكاياته وقصصه ونكاته . كم اشتاقت إليه .. أشعر أنى يتيمة بدونه .. أنى أحبه .. ولم أكن أدرى ذلك .. أحبه . شيئا لا أصدقه .. كنت اعتبره مجرد زوج .. مجرد رجل .. مجرد تكملة للوجاهة الاجتماعية .. لا .. أنى أحبه وافتقده .

ووجدتنى أفتش فى ملابسه .. واشتم رائحتها .. واشتاق إلى عطره .. ثم أخذت أبحث فى اشياءه .. لعلنى اعثر على شئ يدلنى على طريق اصل إليه .. اننى حتى لم اهتم بعمله .. ثم فجأة بدأ الألم يعتصرنى .. عندما تصورت انه قد يكون حدث له مكروها .. وأدركت اننى كنت أعيش معه ولا أعيش معه .. وفى الصباح الباكر .. هادنى تفكيرى إلى أن ابعث بصورته فى الجريدة .. بعنوان « خرج ولم يعد » رأى الإعلان .. نظر إليه طويلا .. طوى الجريدة وألقاها جانبا .. ثم خرج .

قراءة نقدية

حالات من التفسخ النفسى
فى هدية إسمها الحياة

نبيل عبد الحميد

● فى مجموعتها القصصية الحديثة « هدية اسمها الحياة » ركزت الكاتبة سمية عبد الحميد على تلك المنطقة النشطة من حياة المرأة المعاصرة . منطقة التداخل الحقيقى بين المشاعر الفطرية الفوارة من جهة ، وسلوكيات المجتمع وأزمات التطوروتشابك العلاقات من جهة أخرى . لذلك فهى منطقة إختبار للقدرة على إتخاذ القرار ، إثبات الذات ، فى المنظومة البشرية ، منظومة آدم وحواء .

● وقد إختارت الكاتبة وبانتقاء واع بعض النماذج المتميزة ، ممن يحملون ثراء نفسيا عاطفيا جياشا .. يتبدى فى صورة قلق توجسى ، أو رفض ثائر ، أو تجاوب متناغم .. ودون الهبوط بهذا النوع من الثراء عن مستوى البعد الفكرى ، والأخلاقى ، والدينى المتوازن . وقد إختارت الكاتبة هذه النماذج لتدور بها فى فلك البطل الواحد ، الراوى المنفرد ، المتمركز فى بؤرة الحدث ، المسيطر على دقة العلاقات وردود الأفعال فى كفاءة واقتدار .

والمرأة المتمردة هى بطل بؤرة الحدث فى غالبية القصص .. وهى تبدو دائما ممتلئة بالطموح والتشوق للقفز فوق الأعناق والأعراف والطبقات .. وبرغم تماسك بطلتنا هذه ظاهريا فإن داخلها النفسى يظل منصهرا فى معاناة الهشاشة ، معاناة إفتقاد القدرة على المراوغة والإفلات من بين قضبان الفضيلة المفروضة عليه .

ومن هنا يحدث نوع من التفسخ النفسى !

وهذا التفسخ النفسى يحدث إما عن طريق التفاعل مع الآخرين ،

أو يحدث عن طريق التفاعل الذاتي .

– أولاً : التفسخ النفسي عن طريق التفاعل مع الآخرين :

● في قصة « أهلا بك » نجد عملية التفسخ النفسي وقد نشطت من خلال بيئة قضية منشطة لهذا النمو السرطاني .. فالمرأة المتمردة بطل بؤرة الحدث تواجه خيانة زوجها بعاصفة هوجاء من الإستنكار والرعونة . فالمسألة بالنسبة لها لم تكن بسبب إنحراف الزوج وسقوطه في شراك إمرأة أخرى ، لا تفوقها جمالاً أو ذكاءً ، لم تكن بسبب ضياع الرجل الذي أحبته وضحت من أجله بالكثير ، ولكن مرجع الأمر كله من وجهة نظرها هو دناءة هذا الرجل ، الزوج والحبيب ، وإنزلاقة الطائش لهذا المستوى الوضيع من البشر ، والذي لا يتلاءم مستواه بحال مع مستواهم الرفيع المتأصل .

فطرف الخيانة الآخر .. مجرد عاملة حقيرة ، مجرد فتاة بسيطة من عاملات المصنع الذي يمتلكه زوجها ، وقد تمكنت من الرجل بإقتدار وأخذته .. فأي إمتهان لكرامتها وكبريائها ومستواها الإجتماعي يقوم به هذا الزوج الجاحد ..

إذ لو كان طرف الخيانة الآخر إحدى وجيهات المجتمع ، إحدى ذوات الأصل والفصل واللمعان الطبقي لما كان هناك مشكلة ، ولظلت المسائل تحت السيطرة .

ولكن رغم كل هذا الحزن والإنكسار المترسب بداخل الزوجه

البطلة ، وبرغم انسلاخها عن الرجل الخائن ، شريك العمر وآمال المستقبل ، برغم كل ذلك تجدها وقد إستطاعت إن تستعيد تماسكها النفسى . . وأيضا برغم إكتشافها المفاجئ بأنها تحمل فى أحشائها بعضا من ماضيها المفقود . . ويظل التساؤل الصعب يروادها فى الحاح . . فهل تلفظ هذا البعض وتدوسه بالأقدام إنتقاما لكرامتها المهدرة ، أم تبقيه جذوة ضوء لعلها تمتص ظلمته الأيام المقبلة ؟!

وهكذا تبدو هشاشة القدرة على الإفلات من بين قضبان الفضيلة المسيطرة عليها .

« ولكنك يا هالة لا يمكن أن تمسكى بعصا سحرية وتجعلى كل شئ يسير وفق هواك . . ثم لماذا تغضبين الله بموت هذا الطفل البرئ . . »

● فى قصتى . . « الظل » . . « وتائهة وسط السحاب » نجد نفس المرأة المتمردة وقد إستكانت بالمعاشرة تحت جناح الزوج المتسلط . . فراح يلتهم شخصيتها فى جسارة ودأب . . إلى أن تمكن منها وحولها رغما عنها إلى شئ تابع ، شئ يفتقد القدرة على توجيه الإرادة وإتخاذ القرار . .

وعندما يقع الهيكل الضخم فجأة ، عندما يقع الرجل وتنهار معه منطقة الظل الجاثية ، نكتشف هذا الإنكسار المستكين ، اللائذ بالركن ، هناك فى أقصى الظل .

ومن خلال تداعيات الإنهيار داخل المرأة يطالعنا هذا الجدار الصلب ، المدعم بركام الفوارق السنية وفراغات البعد الثقافى بين الشخصيتين ، والحائل دون تلاقى أى تجانس بينهما ..

وهكذا يصبح طريق الهروب المتاح عن مرفأ الظل المنهار هو سرعة الإندماج فى صخب الحياة .. فتنطلق المرأة إلى مجالس الشلل والندوات والمحاضرات والحفلات ، مندمجة فى أجواء الثرثرة بكافة أنواعها . وأخيراً يظهر ماجد فى الأفق ذلك الشاب الوسيم ، الممتلئ نضارة وحيوية وإنطلاقا . فتعود تراود النفس رغبة الإمساك بتلابيب الزمن المنصرم ، أملا فى إختطاف لحظة سعادة مفتقدة .. ولكن هل عاد للنفس قدرة الإفلات بهذه اللحظة .. هل عاد التمرد مجديا أمام واقع مترسخ بفعل الزمن ..

« جلست أمام المرآة وتأملت الزمن وقد نقش بأزميله الحاد علاماته القاسية ، تحت عينيها وحول شفتيها وتحت رقبتها .. رأت سنين عمرها الحقيقى تطل بلا رحمة .. هل ستنجح يوما فى الخروج من دائرة الظل .. »

● فى قصة « حطمت قيودى » تطالعنا المرأة المتمردة وهى تعيش كابوسا مزعجا ، وهى ملقاه فى السجن متهمة بجريمة لم ترتكبها ، والمجرم الحقيقى رجل فى عمر والدها .. ذئب مراوغ تمكن منها بعد أن إستدرجها إلى الفندق وهجم عليها .. إشمعنى أنا ..

ويظل الكابوس يعتصر الدماغ المنهار فى غير رحمة ... فسوف تساق إلى النيابة . ثم يستدعون أخاها .. ثم تفصل من الكلية .. ثم يلوك الناس فضيحتها .. قضية آداب مخلة بالشرف ..

وهكذا يتداعى التمثال الجميل ، تمثال المرأة المتمردة وهى تعترف بجرثومة الوباء التى تسللت إلى نفسها ، إلى هذا التمثال الجميل فنخرته وشوهته .. صورت له رحابة الحرية الزائفة وكأنها أكسير السعادة المنشورة ، فأصدقاء السوء ، وحفلات الرقص والمجون ، والاستهتار بالقيم الأخلاقية ، والإنحطاط فى متاهات التحرر .. كلها فى نظرهم متع مباحة ومشروعة .. ويتحول موقف الجانى المفاجئ .. يتكشف تحول المرأة المتمردة .. وكلاهما من الناحيتين النفسية والسلوكية ..

« إبتعدت عن الشلة ، إنتظمت فى دروسها ، قاطعها أصدقاؤها ، فلم تهتم ، قالت عنها والدتها إنها مريضة بالوحدة والإكتئاب فلم تعبأ بها ، إستقالت من عملها فى شركة عزت بيه » .

● فى قصة «سأبكى غدا » تطالعنا المرأة المستمردة وهى فى حالة هيام ونشوة ، حالة تدفق إلى حيث رحاب الحبيب ، إلى حيث تدور فى طواعية بين أطياف الأحلام الوردية ، تشوقا لمستقبل مفتوح الذراعين .. فما أجملها فترة الخطوبة فى كنف الحبيب الأوحد .

ولكن هذا الحبيب الغادر يتركها فجأة لتأتىَ الطعنة على غير

إنتظار .. يتركها ويسافر متعلقا بقطار المستقبل حيث يأخذه إلى بلاد الثلج ، يتركها ملقيا لها برسالة تلغرافية ذات وقع أشد قسوة من برودة البلاد التى هاجر إليها ..

تنهار المرأة المتمردة متصدعة فى الصميم . فقد أحبت الرجل وأخلصت له أعواما .. فكم يستغرق نسيانه من العمر ..

ثم ما تلبث أن تعاودها حالة الاتزان النفسى ، لتجاهد وهى تسعى للمصالحة مع المجتمع وصوت الإيمان . « أتريدين الحصول على كل شئ .. العيشة الرغدة المركز المرموق ، الجمال والشباب ، وكذلك تريدين الحب !؟ »

ـ ثانيا : التفسخ النفسى التلقائى :

فى قصة « حدث بعد منتصف الليل » نواجه نوعية من الرجال المشهورين ، أصحاب المواقع البارزة فى المجتمع .. عندما تعصف بذواتهم حالة من النرجسية الهوجاء ،فتجتاح فى طريقها كل ما يعترضها من إستحكامات أخلاقية إنسانية بريئة ..

فالطبيب المشهور ، صاحب الإسم اللامع والجاه المرموق ، يجد نفسه عاريا فجأة أمام كل العيون .. يجد نفسه مضطرا للمثول فى مواجهة الأراذل الجهلاء من رجال الشرطة ليستخلص إبنته من بين أيديهم .. والإبنه مقبوض عليها وهى فى حالة سكر بين .. وهناك فى قسم الشرطة تتسع دائرة الفضيحة من حول الرجل المشهور ،

فالمسألة أكبر بكثير مما كان يتوقع . فالبنت ، إبنته الوحيدة مدمنة ومنهارة من فعل الخمر والمخدر . . والدهاء من رجال الشرطة يتعاملون معه بجفاء وبرود لم يعتده من مخلوق . . فلم يصدق ما يرى وما يسمع . ويظل يجتر الذات فى تحسر مذهول . .أيمكن أن تكون هذه الحثالة المدنسة هى إبنته ؟! أيمكن أن تتحول البراءة والطهارة إلى مثل هذا الشئ المتهرئ تحت الأقدام !؟ هل كان وهما أم حقيقة كل ما بذله وما ضحى به من أجلها ، من أجل وحيدته ، خلاصته معاناته مع الدنيا . . « نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة . . الهالات الزرقاء تخضب عينيها . . الشحوب الباهت ينبع على وجهها ، والنظرات الزائغة ترتعش فى مقلتيها . . كانت ترتدى بلوزة خفيفة تكشف تفاصيل جسدها ، وبدت كقطة مبتلة شريدة مرتعشة تبحث عن ملجأ . . وألح عليه التساؤل . . متى كانت آخر مرة رآها ؟ »

وتنطلق شرارات النرجسية من أعماقة متفزعة ساخطة .

فماذا لو عرف الإعلاميون المتربصون بأمر هذه الفضيحة المخزية؟

كيف يمكنه أن يواجه كل العيون والتساؤلات والإتهامات ؟

وكيف يتعالى بعد اليوم بالذات المتضخمة فوق كل الرءوس كما إعتاد أن يفعل ؟

ثم ماذا بعد أن يضع فجأة كل ما بناه طيلة الأعوام السابقة ،

ويسقط منهارا تحت قدميه ؟

وهكذا تسرى عملية التفسيخ النفسى التلقائى بين قوتين متصارعتين فى الداخل .. قوة غريزة الأبوة الحنون المتسامحة ، وقوة الرفض النرجسى الثائر .. وأخيراً تتغلب غريزة الأبوة ، فتسيطر على الموقف بشكل حاسم .

● فى قصة « للحب قصة طويلة » نجد الحرمان العاطفى يكون سببا لهذا النوع من التفسيخ النفسى التلقائى .. فالمرأة بلغت سن اليأس ، وهى عاجزة عن إقتناص العريس المنشود .. لم ينبض قلبها الأخضر بالحب طوال دراستها الجامعية ، ثم جاء دور أختها الصغرى لتسبقها فى الزواج ، وتظل هى تترقب وتتشوق .. وتقسو عليها الأيام ، وتتراكم كتل اليأس فى قاع صدرها ، بينما تنسلخ عن الجميع وتعيش وحدتها الممتدة .. مستسلمة لوطأة التفسخ الدؤوب ، مابين ملاحقة الكوابيس المفزعة ، وهدهدات الأحلام الوردية .. فقد تزوج كل الأخوة والأخوات ورحل الأب والأم .. وظلت نهبا لنظرات الفضوليين والسنتهم .. أغلقت بابها عليها وراحت تجتر يقينا مترسخا بداخلها ، بأن لازواج بلا حب ، ولا حياة بدون الفارس الجميل .. وتسوقها الأقدار لتلقى بالرجل المنتظر .. وتواتيها الفرصة أخيرا ، ودون سابق إنذار ليداعبها الأمل البراق بأن الطريق يمكن أن يستوى تحت القدمين ، ولأول مرة ..

● فى قصة « دعوة للحياة » ينمو « فيروس » التفسخ الذاتى فى صدر الطفل الحائر بين الأبوين .. فالأب والأم كل منهما يعيش حياته الخاصة منفصلا عن الآخر . « كان الإحساس المرير بالضياع والغربة فى بيت أبيه يمزقه ، كضيف دخيل غيرمرغوب فيه .. والآن وقد أصبح طريدا شريدا يفتقد الملجأ ، فأين يبيت ليلته ؟

هل يذهب إلى أمه الثريه ؟ ماذا لو طرق بابها ؟

وتتأزم المعاناة حين تتلاطم مشاعر الطفل وبراءته بعواصف الجحود والجفاء فى غير رحمة .. وحين يجد كيانه الضئيل منبوذا فى متاهات الدنيا الواسعة .. فيتوه منه العقل ويسقط مهيضا تحت عجلات العربة .. ويكون خطاب الجد هو المرفأ الأخير القابل للإحتماء به .. فى هذ القصة بدا التفسخ النفسى متناسبا مع مساحة المعاناة وعمقها وردود أفعالها التلقائية ، إذا ما إقترن بإمكانيات وعالم طفل لا يتعدى الثمانية أعوام ..

● فى قصة « قلب جديد» نجد هذا النوع من التفسخ السرطانى المزمن ، المتركز فى قلب البطل « مدحت بيه » .. الذى تمكن من تشكيل شخصية الرجل فى صورة الكائن الصارخ ، الحاقد ، الأنانى ، المتخاصم مع العلاقات الإنسانية فى إستبدادية .

ولأنه صاحب سلطة فقد توهم القدرة على إخضاع كل الإرادات لصالحة .. ولأنه لم يصطدم يوما بمعارض فقد تصور نفسه عقلا فذا

نادرا » كان ضخم البنيان يبدو أكبر من عمره الحقيقى ، يخشى الكثيرون بطشه ، معروف عنه أنه دائم الصراخ والشجار مع الجميع ، ونظرا لحساسية مركزه وأهميته كان الجميع يطلبون وده ويتحملون عصبيته »

وياتى اليوم الموعود فيباغت البطل بسقوط مفاجئ ، مؤكدا أن المرض حسابات أخرى ، لا تخضع بحال لحصانة مركز ، أو لعلو صوت ، أو لقوة جسد .. ويسقط الرجل فقد اهتز داخله بعنف .. ويزداد التفسخ النفسى التلقائى تقيحا ونزفا ..

فاين ذهب كل المرائين والإنتهازين وحملة المباخر ؟

إختفى الأخلاء والأهل والجيران ؟

الكل ذاب وتلاشى بعيدا فى الأفق .

وبدأ الشيطان ينجز فى عطب الدماغ .. يتسلى على الكائن الهش المنهار .. فهل سينجو من المرض ؟ هل سيظل القلب القديم قادرا على الدق بإنتظام وعافية ؟ هل سيعود لموقعه فى بؤرة الضوء مرة أخرى ؟ » يخشى أن يسلم لهم قلبه ، أغلى ما يملك ، وبه كل أسراره ومعاركه مع أصدقائه قبل خصومه .. يرتعد من الداخل ويتصور أنه فى كابوس . قلبه الذى طالما قال إنه من حديد ضعف ووهن .. ويطلب المساعدة .. » .. تجتهد الكاتبة سمية عبد الحميد لرفع مستوى اللغة الفنية فى إبداعها القصصى .. ويبدو ذلك ملحوظا فى هذه المجوعة

القصصية « هدية اسمها الحياة » إذا ما قورنت بالمجموعة الأخيرة لها « نزهة ليلة » .. فقد إستقرت الجملة اللغوية فى سياق الأسلوب بشكل أكثر نضجا ووعيا .. كما أن حصيلة المفردات اللغوية إتسعت وتنوعت وساعدت على التوصيل الجيد .

لغة الحوار برغم قلتها فقد أضاءت بعض جوانب الشخص من الداخل .. وبرغم إستخدام العامية أيضا فى هذا الحوار إلا أنه بدا متماسكا ومتزنا ، ولم يهبط بالسياق العام للمستوى الأسلوبى ..

إضاءة حول الكاتبة

سمية عبد الحميد

● مواليد القاهرة .

●خريجة كلية الإعلام ـ جامعة القاهرة .

● عضو إتحاد الكتاب .

● عضو نادى القصة .

● عضو جماعة الجيل الجديد الفكرية .

● نشرت قصصى القصيرة بعدد من الصحف العربية والمجلات الأدبية المتخصصة .

● شاركت بالحضور فى العديد من اللقاءات الفكرية والمنتديات الثقافية والندوات الأدبية والروائية .

● صدرت لى مجموعتى القصصية الأولى بعنوان «نزهة ليلية» العدد السابع من كتاب الجيل الجديد عام ١٩٩٩ .

الفهـــرس

رقم الإيداع لدار الكتب

٢٠٠٦/٨٥٩٥

الترقيم الدولى

I.S.B.N.: 977-8595

دارالنيـــــــل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شـارع عبـده بدران

م. الباشا-المنيل-القاهرة

ت: ٣٦٢٢٥٧٨